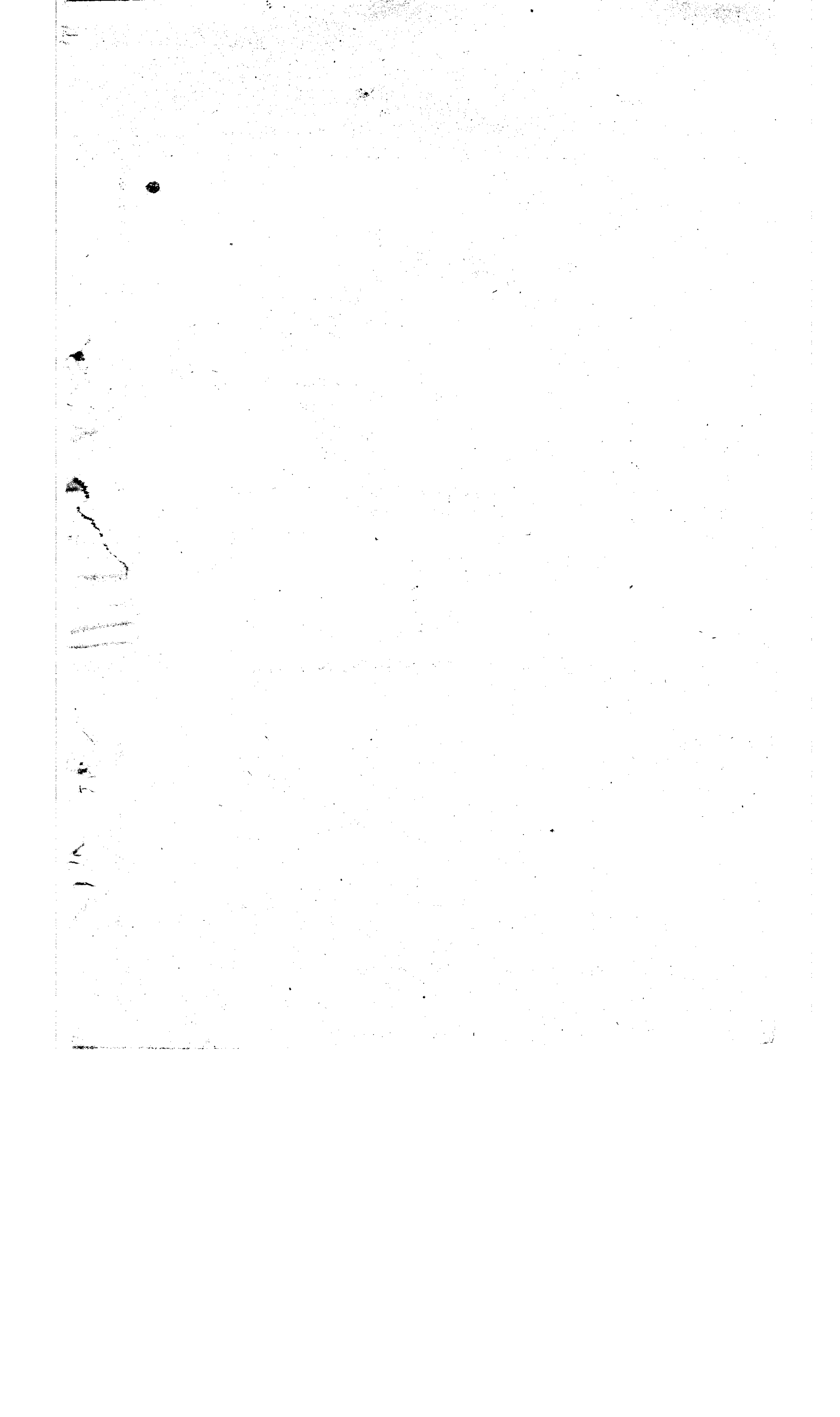


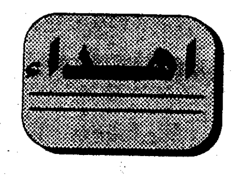
تأليف
الدكتور / محمد حسينى موسى محمد الغزالى

الطبعة الثانية

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م
دار حبيب
للطباعة والنشر





إلى : ....

العقل الراجح

الفكر الواضح

المجتهد الناصح

صاحب الفضيلة

الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر

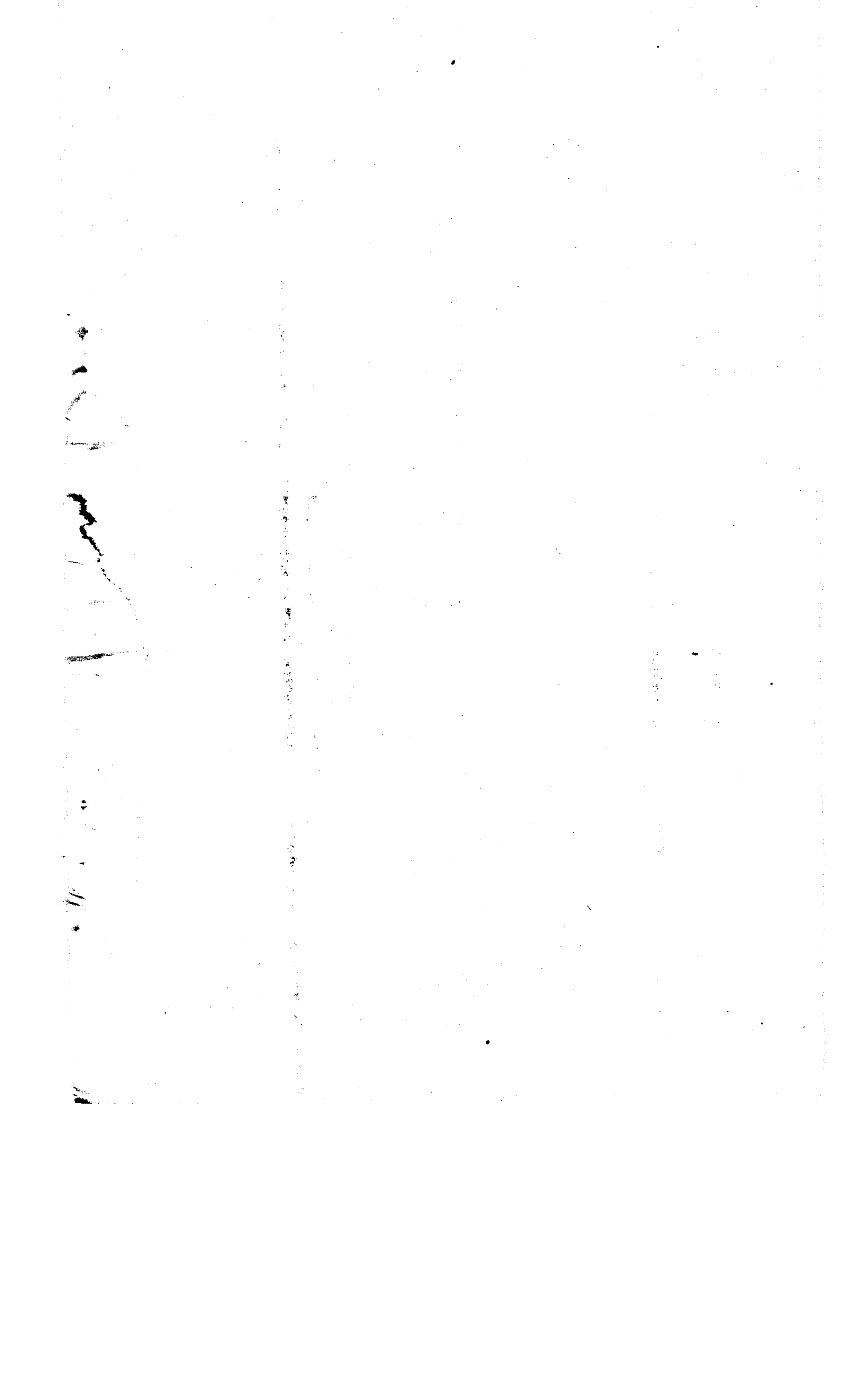
الأستاذ الدكتور

محمد سيد طنطاوى

تحية وتجلة ....

دكتور

محمد حسينى موسى محمد الغزالي



مقدمة

الحمد لله آنس قلوب أحبابه بمزيد ذكره، "الذين أمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ، الذين أمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب" [١]

والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله ، رفع له ربه ذكره ، وأعلى بين الخلائق قدره ، اللهم صلى وسلم وبارك عليه وآل بيته الأطهار ، وصحابته الأبرار ، ومن التزم كتاب الله وسنة رسوله فهم الأخيار .

أما بعد

فإن الحياة الروحية فى الأسلام ما تزال تجتذب الأصدقاء ، وينددفع للعناد الأعداء ، وما يزال الفكر الروحى غضا طرياً ، عذبا رقراقاً روياً ، مادام الألتزام ديدنه ، والأعتصام بالنقل المنزل عقله ومعصمه . ورضوان الله هدفاً له ومأمنه .

بيد أن الحياة الروحية عمل الفكر الخالص ، والوجدان المهذب ، والعواطف النبيلة ، ومظهر النوايا الطيبة ، وصورة نابضة بالضمائر الحية ، والأفئدة التى تعلقت بالغيب فأمنت ، وتركت اللغط والجدل فسلمت ، حتى كان روادها طلاب معرفة ، والناشئون فى رحابها هداة الظلم ، وحداة القوافل .

والحق الذى لا يسقطه جدل ، هو أن الفكر عمل العقل الخالص ، الذى ربما تأبت عليه قضايا الوجدان المرهف ، والمشاعر النبيلة ، والعواطف التى تقود أصحابها إلى مراقى العلا قسراً عنهم ، أو بإرادة يشوبها هاجس التمنع .

---

[١] سورة الرعد الأيتان ٢٨ ، ٢٩

والعقل ان حاول فرض أحكامه فى كافة القضايا التى تعرض لها بمقياس واحد ، ربما جارت أحكامه . لأن القضايا تتعلق بموضوعاتها ، والمعروف أن موضوعات المعرفة أثنان :

١-الأول : عالم الغيب .

٢- الثانى : عالم الشهادة .

وكل منهما له ظروفه ومسائله ، وطرق المعالجة . فإذا أراد العقل فرض حكم واحد على الجميع ، فلاشك أن هذا الحكم سيموت قبل ميلاده ، ويختفى قبل أن تظهر للحياة بوادره ، ومن ثم . فإن الحياة الروحية فى الفكر الاسلامى لا يمكن الحكم عليها بنتائج الفكر الخالص فى الرياضيات مثلاً ، والا ضل الحكم وسقط .

وبحوث التصوف ، وأفكار الصوفية "من القضايا التى تعد" أمراً خطيراً ، يفتقر إلى اطراح الهدى ، واستعمال النصفة ، والعدل فى الحكم . ويتطلب أن ينزل الباحث حيبا عن بعض نظراته المادية ، ليتيسر له ان يعيش أونة فى هذا الجو الروحى [1] "ولا بدله أن يتعرف على مصطلحات القوم التى يستعملونها ، وأن يوزان بين أذواقهم والأشواق . كما يتعرف على المواجيد والأطروحات .

بيد أن الأفكار الصوفية تحتاج مزيد جهد بغية التعرف اليها ، حتى يمكن الاستفاده منها ، وعدم الضعن من الاعراز عنها . لأن الصوفية يدورون "فى عموم أحوالهم مع الحق بالحق . صفاهم ربهم من كدورات البشرية ، ورقاهم إلى مجال المشاهدات بما تجلى لهم من الحقائق الأحدية [2]

---

[1] الاستاذ الشيخ/ مصطفى عبد الرازق ، مقدمة كتاب ابن الفارض والحب الالهى ص٧ دار المعارف

[2] ابو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى - الرسالة القشيرية فى علم التصوف ص٣ ط صبيح

كما أن الصوفية هم الذين بنوا " قواعد أمرهم على أصول صحيحة في التوحيد، وصانوا عقيدتهم عن البدع ، ودانو بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة"[١] وبالتالى فإن افكارهم التى صحت نسبتها اليهم.تحتاج المزيد من البحث والدرس والمراجعة .

" وما كان أحرانا ، والتصوف جزء من تراثنا الاسلامى ، أن نكون أبر به ، وأكثر اقبالاً من غيرنا عليه "[٢] أما أن نخاصم الصوفية ، والأفكار التى صحت نسبتها اليهم ، فليس ذلك منطق الرشد والاعتدال ، بقدر ما هو حكم العجلى ، وروى المفزعين .

ومن يدرى فربما اعتدل أصحاب الرأى ، وأنعم اصحاب التفكير ، فبحثوا فى الصوفية وأفكارهم ، وعرفوا مواجيدهم وأذواقهم ، وفهموا رموزهم واشاراتهم ، ومن يدرى فربما انقلب الأعداء أصدقاء ، والفرقاء أشقاء ، حتى كانوا جميعاً صوفية ، وهتف داخلهم بأن الأفكار الصوفية " انما هى تعبيرات عن حياة روحية راقية ، وحالات نفسية رائعة".[٣]

من ثم كان اهتمامى بالأفكار الصوفية ، محاولاً دراسة الفكر الصوفى بأدلته ، فإن صحت نسبتها إلى القوم ، وصح أنتسابها للشرع فهى لهم ، وان لم تصح فلا عبرة بها وان نسبت الى أقدمهم سبقاً ، أو اكثرهم شهرة ، وأوسعهم ذيوعا ، اذ الأصل هو الالتزام الشرعى ، أما غيره فلا. اما لماذا ؟

فلانهم يقررون أن علمنا هذا مقتبس من القرآن والسنة وفعل الصحابه واجماع الأمة ، فما وافق النقل المنزل من هذه الأفكار قبل ، وان لم ينسب

---

(١) المصدر السابق ص٥

(٢) الدكتور / محمد مصطفى حلمى ابن الفارض والحب الالهى ص٩

(٣) المصدر السابق ص١٠

لصوفى مشهور ، وما خالف النقل اهمل ولو تعلق به كل الصوفية ، لأنه مخالف للمنهج الذى قرروه لأنفسهم .

بيد أنني هنا أنوه إلى التفرقة الحاسمة التى أشار إليها شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله . من وجود :

١- صوفية : وهم أهل الصلاح والتقوى . أهل الله وولايته ، ومنهم القاضى عياص ، والدارانى وبين " أنهم مجتهدون فى طاعة الله ، كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله ، ففيهم السابق المقرب يحسب اجتهاد " وفيهم المقتصد الذى هو من أهل اليمين[١]

٢- متصوفة : وهم المنتسبون للصوفية ، وفيهم من هو ظالم لنفسه ، عاص لربه " [٢]

وبالتالى سنركز على الأفكار الصوفية وحدها إذ نحن انما نبحث عن الفكر الصوفى ، وليس عن المنتسب للصوفية ، ونحاول التعرف على الفكر الصحيح وملامحه ، وآدابه ، وكيفية الاستفادة منه فى عالم اختطلت فيه الأمور ، وأوشك الحليم أن يقول : **واحيرتاه** . ولذا أسميته **"أنسام حيية فى الأفكار الصوفية"**

فإن تكن خطواتى قد وفقت فذلك الفضل من الله ، وكفى بالله عليما ، وان اكن قصرت فما أنا إلا عبد ضعيف يخطئ أو يصيب ، اللهم اجعله زخراً لى عندك ، من قبيل العلم النافع والعمل المقبول فانت أكرم معط ، وأعظم . مأمول ، سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم وصلى اللهم وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

د/ محمد حسيني موسى محمد الغزالي

غرة شهر شعبان المبارك ١٤١٨ هـ

ديسمبر ١٩٩٧ م

غزالة الخيس مركز الزقازيق شرقية

---

[١] شيخ الاسلام ابن تيمية - مجموع الفتاوى التصوف المجلد ١١ ص١٨

[٢] المصدر السابق ص١٨

الفصل الأول

((ماهو الفكر الاسلامي))

ما هو الفكر الاسلامي

أجل .. هناك فرق بين النقل المنزل ، وفهم النقل المنزل وبالتالي فان فهم النقل هو الفكر ، ولذا لما كان الفكر منحصرا في القضايا التي تناولها النقل نفسه صار الفكر موصوفا به ، فقيل عليه : الفكر الاسلامي لانه في حدود النقل المنزل نفسه .

لكن الحديث عن الفكر يحتاج الى :

١- تعريف .

٢- اقسام .

٣- موضوع .

٤- خصائص

وقد فطن أجلاء المسلمين من المفكرين الى تلك المسائل فبذلوا فيها ما أمكنهم ، حتى باتت مسائله بينة ، وقضايا جلية ، وما عاد الباحث عنها يجد صعوبة في تناولها ، فما هو تعريف الفكر ؟

أولا : تعريف الفكر :

أ - في اللغة

عُرِّف الفكر في اللغة بعدة تعريفات منها :

١- الفكر هو " جملة النشاط الذهنى بما فيه من تحليل وتركيب وتنسيق ، على اسمى صور العمل الذهنى (١) وهذا التعريف المعجمى او القاموسى خاص بالعمليات العقلية التى يمارسها الذهن الانسانى وحده ، ولا يتناول العمليات التى يقوم بها الحس فى الحسيات بمراقبة القدرات العقلية.

٢- الفكر هو " ترتيب أمور معلومة للتأدى الى مجهول (٢) " سواء كان المؤدى اليه من باب التصورات أو من باب التصديقات وطبقا لهذا الذى سلف يكون الفكر مرادفا للنظر العقلى من حيث ان النظر العقلى يعرف بأنه " ترتيب أمور معلومة للتأدى الى مجهول أيضا .

٣- الفكر هو اعمال النظر العقلى فى الشىء الموضوع نفسه ، كما يطلق الفكر على التأمل ، وربما سمى كل من إعمال النظر والتأمل العقلى فكرا ، وكما يطلق الفكر على أعمال النظر

---

(١) القاموس المحيط باب الراء فصل الفاء وما يشاكلهما جـ٢ ص ٢٩٧ والمعجم الوجيز ص ٤٧٨

(٢) السيد الشريف الجرجانى - التعريفات ص ١٤٧

والتأمل فكذلك يطلق على حركة النفس الانسانية فى الأمــور المعقولة ، وربما فى الامور المحسوسة أيضا .

ولأن طبيعة الفكر قابلة لليقين فى اليقينيات (١) والظن فى الظنيات ، (٢) فقد وقع الخلاف فى تحديده على الناحية الــتى يرجى منها تقديم تعريف محدد ، فاذا لم يكن ذلك ممكنا علــى الناحية اللغوية فلا شك أن تلك الصعوبة قد تخف حدتها مــتى علمنا أن تلك من طبيعة الفكر الانسانى .

ب ـ تعريفه فى الاصطلاح :

عرف الفكر الانسانى فى الاصطلاح بعدة تعريفات ، بعضها للمتكلمين ، وبعضها للمناطقة ، وبعض آخر للنحاة ، ورابــع للمفسرين ، وخامس للاصوليين ، وسادس للصوفية ، والملاحــظ انها فى حدود اصطلاحات الفكر الانسانى المقيد بالنقل المنــزل فى الاسلام :

(١) اليقينيات ما كانت ادلتها قطعية الدلالة قطعية الثبوت ، أو كانت من الضرورات العقلية التى لا سبيل الى انكارها .

(٢) الظنيات : ما كانت ادلتها احتمالية ... كانت قطعية الثبوت او ظنيته ، وفى العلوم الطبيعية ما ... النتائج فيهــا التعديل لا الاضطراد .

كما أن هناك تعريفات للفكر الانسانى عامة بعيدا عن التقيـــد بالنقل ولأصحابه تعريفات شتى كل حسب الموضوعات الـــتى يتناولها ، والقضايا التى يعالجها ، ولكنا سنضرب صفحا عنهـــا حتى نخص الذى نحن بصدده بالفكر فى الأصطلاح الاسلامى فقط حرصا على الاستفادة من الوقت بأوسع ما يمكن .

بيد أن المتقدمين من الاسلاميين لهم فى الفكر تعريفـــات ، وللمتأخرين منهم فيه مجهودات وهذا كله يؤكد أن المسألة أكبر من أن يحكم فيها برأى فنان ، أو ينتهى الأمر فيها بقضـــاء أديب .

كما يؤكد ما سلف ذكره من أن الفكر فى حد ذاته أكبر من أن يحد بتعريف ، وأنه لم يتم اجماع من المتناولين له على تعريف يمكن اعتماده ، وجعله قضية عامة ، انما وجد العديد من التعاريف الاصطلاحية ، بعضها ينهض ، وبعضها يكبو ، أو تضعف أجزاؤه عن حمل القائمين به على تطبيقه ، أو حتى يكون أداؤه بالقدر الموصل الى اليقين المطلق ، فضلا عن أن يكون هو اليقين نفسه .

بيد أنى سأحاول تقديم بعض التعريفات الاصطلاحية ، فربما وجدنا قاسما يجمع بينهما ، أو يحدد الصورة التى يمكن الاعتمـــاد

عليها ــ على الأقل فى الدراسة التى نحن بصددها ، من هذه التعريفات ما يلــــى :

١ــ عرف الفكر بأنه :

" ترتيب أمور معلومة للتوصل الى مجهول (١) وذكر الشيخ السيلكوتى فى حاشيته على القطب أن هذا تعريف للفكر عنـــد المتأخرين من المناطقة والمتكلمين (٢) وبالتالى فان متقدميـــهم لم يقولوا به على أحسن تقدير .

الفكر هو " ترتيب أمور معلومة للتوصل بها الى أمر مجهول فالأمور المعلومة هى المقدمتان الصغرى والكبرى ، والأمر المجهول هو النتيجة (٣) وهذا التعريف ربط بين المقدمات العقلية وبين النتائج المترتبة عليها لا على سبيل اللزوم ، وانما على سبيل الانتقـــال الذى يُسلّم فيه بصدق المقدمات .

لكن هذا الترتيب الواقع بين الأمرين " المعلومين ليتوصل بهمـــا

---

(١) الشيخ / احمد الملوى ــ شرح السلم المنورق ص ١٩ ط الحلبى ١٩٣٨م .

(٢) الشيخ / محمد على الصبان ــ حاشية الصبان على شرح السلـــم للملوى ص ١٩

(٣) الشيخ / حسن درويش القويسنى ــ شرح القويسنى على متن السلـــم فى المنطق ص٤ ــ ط الحلبى ١٩٥٩ وعليها تقريرات الشيخ خطاب عمر الدروى الشافعى .

الى مجهول تصورى أو تصديقى (١) انما هو ترتيب ذكرى وذهنى معا .

فنحن حينما نعرف الانسان مثلا بأنه حيوان ناطق فهذا أمر تصورى ، لا بد فيه من تصور الحيوان والناطق ، والعلاقة القائمة بينهما ، وضرورة الاتيان بالجنس والفصل على النحو الذى قال به المناطقة حتى يكون أمرا تصوريا .

وكذلك حينما نحاول الاستدلال على حدوث العالم ، فاننا نلجأ الى اثبات أنه متغير أولاً ، ثم نعتبرها قضية مسلّمة فنقول: العالم متغير ، وكل متغير حادث ، ثم تأتى النتيجة العالم حادث وهو أمر تصديقى ، لزم منه وجود مقدمات ورابطة ، ونسبة ،وتسليم بالمقدمات ، وهذا كله من باب التصديقات .

لكن هذا التعريف لم يسلم من النقودات الكثيرة التى وجهت اليه ، سواء من المناطقة أو من المتكلمين ، وأبرز هذه النقودات ما رجعت الى الغاية من التعريف الاجمالى للفكر ، وركزت على :

---

(١) الشيخ ابراهيم الباجورى - حاشية الباجورى على متن السلم ص٧ ط الحلبى .

أ — أن هذا التعريف هو نفسه تعريف النظر العقلى ، فكأنه تعريف بالمرادف ، ومن ثم لا يكون ناهضا فى وجه المختلفين .

ب — ان هذا التعريف ركز على المعقولات فقط ، ولا ينحصر الفكر بالمعقولات ، انما يمتد ليشمل امورا معلومة تستلزم حتما حركة من حركات النفس فى المعقولات ، لأن النفس الانسانية فى جانبها المعرفى تنتقل من بعض المعقولات الى بعضها الآخر .

جـ — أن هذا التعريف قريب من تعاريف اللغة ان لم يكن هو ، بل ويؤدى اليها على نحو من الأنحاء ، ومن ثم لا يكون التعريف مؤديا للنتيجة المطلوبة .

ونحن نميل الى أن الفكر يشمل المحسوسات والمعقولات — باعتبارها موضوعات له ، كما أن الفكر اذا أطلق ربما أريد به معان ثلاثة هى اطلاقات الفكر نفسه .

إطلاقات الفكر

المعنى الأول : حركة النفس الانسانية فى المعقولات أى حركة كانت لأن ذلك من خصائص الانسان نفسه ، وبالتالى فانها تقع له فى فكره ويقابل هذا المعنى حركة النفس فى المحسوسات وهو ما يعرف عند

العلماء بالتخييل .. وبالتالى فهو حركة واحدة فقط .

المعنى الثانى : حركة النفس من المطالب الذى تتردد فى ثبوتها الى مباديها جازمة بها ، وعلى هذا المعنى يكون الفكر مجموع الحركتين معا ، وأعنى بهما :

* حركة المطالب
* حركة المبادىء

فمثلا حدوث العالم ، تتردد النفس فى ثبوته فتلجأ الى مباديه ، والتى منها تغير العالم ، ثم تقوم بحركة أخرى هى الانتقال من المبادىء الى ما هدفت اليه ، وأعنى به انتقال من المبادىء الى المطالب ، فنقول كل متغير حادث ، من هنا تأتى النتيجة العالم متغير وكل متغير حادث .

المعنى الثالث : الفكر هو الحركة الأولى ، وأعنى بها الحركة من المبادىء فقط ، مع الوضع فى الاعتبار أن الحركة الثانيه لازمه للأولى لزوم المتضايفين ، وعلى هذا يكون الفكر هو الذى يقابله الحدس العقلى (١)

---

(١) حاشية الصبان ص ١٩ بتصرف يسير .

نخلص من هذا الى أن الفكر يمكن تعريفه بأنه :

١ـ ترتيب أمور معلومة للتأدى الى مجهول تصورى أو تصديقى •

٢ـ جملة النشاط الذهنى التى يمارسها الانسان من تحليل وتركيب وتنسيق على أرقى ما يمكن صدوره عن الذهن الانسانى •

٣ـ حركة النفس الانسانية فى المعقولات والمحسوسات على قدر سواء

وقد نبه الى هذه المسألة ـ مسألة الجمع بين التعريفات ـ الشيخ العلامة الانبابى وبين أن هناك فرقا بين الفكر والناشىء عن الفكـــر باعتباره سببا عنه ، ثم انتهى الى أن الناشىء عن الفكر انما هو حركة النفس فى المعقولات ، أو هو ترتيب امور معلومة تكون فى التصديـــق الذى هو ادراك النسبة (١) • ويقع الأمران معا فى الفكر نفسه •

وأيما كان الأمر فان الخلاف ـ فيما يبدو لى ـ حول تعريف الفكر انما هو راجع الى طبيعة المعرف نفسه ، وعلى هذا يمكن جمع الاطراف فى المسألة ، ومتى وضعنا فى الاعتبار شمول الفكر لكل من الأمور التـى يكون نتائجها يقينية ، والتى تكون نتائجها ظنيه ، كما يكون شامـلا للمعقولات والمحسوسات ، ومن طبيعة الفكر أن القضايا التى يتناولها انما هى ترجيح كفة على الأخرى ، أو تغليب رأى على آخر ، أو تساوى

(١) الشيخ / محمد الانبابى ـ تقريرات الانبابى على متن السلم ص

الآراء فى المسألة المطروحة ، وتساوى الأدلة فى مقدماتها والنتائج وربما تظل المسألة على هذا النحو قائمة وذلك من طبيعة الفكر الانسانى .

ثانيا : أقسام الفكر :

ينقسم الفكر الى قسمين :

القسم الأول : الفكر الدينى :

وهو ما يمارسه الانسان فى محاولة لفهم النص الدينى ، اذ أن النص الدينى — القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة — ثابت فى نفسه ومفرداته ، لأنه من قبل الله أنزل ، وإلى رسوله بلغ ، ثم ان رسوله الى أمته نصح به وأرشد ، ولابد أن يظل هذا النقل ثابتا فى نصوصه إذ لا يمكن لأحد أن يزيد فيها ، أو ينقص منها ، أو يعدل بالتبديل ولو كان فى حدود وضع حرف مكان آخر ، لأن امكانية المخلوقين لا تسمح لهم به والله سبحانه وتعالى جعل ذلك من خصوصياته وحده قال تعالى " إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ " (١)

وآية ذلك أن الله جل علاه حوّل مجريات الأفهام الى هذا الأمر

---

(١) سورة الحجر — الآية ٩

ونبه عليها ، وأكد أن اجتماع الانس كلهم ، والجن معهم ، على محاولة ايجاد مثيل للنقل المنزل ، انما هى محاولة فاشلة ، لن يكون لهم فيها أدنى قدر من التوفيق ، ولو كانت المحاولة فى الاتيان بمثل سورة واحدة من سور القرآن الكريم .

قال تعالى " قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْانسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (١)

فالانس كلهم ، والجن كلهم ، واجتماع الكلين على رأى واحد ، وامكانية واحدة للاتيان بمثل القرآن الكريم — النص المنزل — مقضى على تلك الامكانية بالوهن ، وعلى المحاولة بالفشل ، مهما كانوا متعاونين يوازر بعضهم بعضا ، ويظاهر بعضهم الآخر .

قال تعالى " وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ . أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢)

---

(١) سورة الاسراء — الآية ٨٨

(٢) سورة يونس — الآية ٣٨

الكريم ، والرسول بلغه لامته كما انزله عليه ربه ، وتلك خصوصية ذاتية فى النقل المنزل ، ولا يد لاحد فيها غيره .

لكن محاولات فهم النقل الدينى هى التى نسميها فكرا دينيا لأنها فى حدوده تعمل ، ومن خلال فهم نصوصه تسرى ، فاذا قام بها من يملك الموهبة التى تعينه على القيام بهذا الدور ، والملكات التى تقف معه ، فلا شك أنها محاولة لفهم النص الدينى قامت على أسس مقبولة ، ونسميها حينئذ فكرا دينيا " من امثال ذلك " :

١- علم العقيدة الاسلامية وما يتعلق به

٢- علم التفسير وعلوم القرآن وما يتشعب عنه

٣- علم الفقه والاحكام المرتبطة به

٤- علم أصول الفقه والقضايا العامة والقواعد الكلية المستنبطة منه .

٥- علم التصوف .

٦- علم البلاغة .

٧- علم النحو .

٨- علم الصرف .

واعوجت منهم المسالك ، وانتهى أمرهم الى التحريف كله ، حتى لم يبق لهم نص سليم يعتمدون عليه ، قال تعالى " إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ . . اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١)

وبين سبحانه أن هذه المحاولة قامت على تحريف الكلم من بعد مواضعه ، كما عملت على تحريفه عن بعض مواضعه ، والتعبير القرآني المعجز فى استخدامه الألفاظ من بعد مواضعه دل على أن عمليات التحريف لم تكن موفقة لأن الله أنزله من عنده . . من بعد مواضعه ، كما دل على أنواع التحريف التى عرفوا بها والتى منها :

أ — تحريف بالزيادة

ب — تحريف بالنقصان

جـ — تحريف بالتبديل

من هنا فان النقل المنزل لا يقبل التدخل فيه من حيث هو كلام الله ، من حيث هو نص مقدس ، من حيث ان الوحى أملاه على الرسول

---

(١) سورة فصلت — الآية ٤٠

الكريم ، والرسول بلغه لامته كما انزله عليه ربه ، وتلك خصوصية ذاتية في النقل المنزل ، ولا يد لاحد فيها غيره .

لكن محاولات فهم النقل الديني هي التي نسميها فكرا دينيا لأنها في حدوده تعمل ، ومن خلال فهم نصوصه تسرى ، فاذا قام بها من يملك الموهبة التي تعينه على القيام بهذا الدور ، والملكات التي تقف معه ، فلا شك أنها محاولة لفهم النص الديني قامت على أسس مقبولة ، ونسميها حينئذ فكرا دينيا " من امثال ذلك " :

١- علم العقيدة الاسلامية وما يتعلق به

٢- علم التفسير وعلوم القرآن وما يتشعب عنه

٣- علم الفقه والاحكام المرتبطة به

٤- علم اصول الفقه والقضايا العامة والقواعد الكلية المستنبطة منه .

٥- علم التصوف .

٦- علم البلاغة .

٧- علم النحو .

٨- علم الصرف .

٩— سائر العلوم التى تنفذ الى العقل المنزل ، محاولة لفهم نصوصه ، وخدمتها ، فانها جميعا نطلق عليها فكرا دينيا .

وهذا الفكر من سماته أنه قابل للأفهام ، ما دامت الأدلة معه مما يجد العقل حولها فرصة لتأكيد دليله ، أو ترجيح ناحية على أخرى ، ومن ثم فانه لا عصمة لهذا الفكر لأنه محاولة لفهم النص وليس هو النص نفسه والفرق واضح ، ولذا استقر عند الفقهاء أن صاحب الرأى — الفكر — له أن يلتزم فى حدود نفسه ، لا أن يلزم غيره .

نماذج من الفكر الدينى

ورد ت أيات الذكر الحكيم من اول سور القرآن الكريم الى آخره على جهة قطعى الثبوت ، وهو الذى استقر عليه الفقه عن الله تعالى فى فهم اسرار كتابه الحكيم ، ومن تلك الأسرار السور التى جاءت بد اياتها حروفا مقطعة ، وغيرها مما هو منصوص على مفرد اته ثم جاء الفكر محاولا بذل مجهود فى فهم المعنى المراد ، واليك بعض النماذج .

١ـ البسملة :

وردت " بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ " فى القرآن الكريم بعدد سوره مائة وأربع عشرة مرة وهو نفس عدد السور القرآنيه ، غير أنها وردت فى سورة النمل مرتين ، ولم ترد فى مطالع سورة البراءة ، فاذا لاحظنا وجودها فى سورة النمل مرتين وفى التوبه خالية كان معنى هذا تساويها فى العدد بالسور القرآنية .

لكن جد الخلاف فى عدها ، وهل هى آية من كل سورة على حدة أم هى آية ثم تكرر مع كل سورة ، أم غير ذلك ، وكل راعى الوجهة التى نظر بها الى الآيات القرآنية فى عدها مرجحا رأى القراء مثلا أو رأى النحاة ،وهذا الترجيح انما هو عمل الفكر وحده ، من ثم رأينا الخلاف يقع بين :

١ـ المالكية : وهم يرون أنها آية من القران الكريم ، ولكنها ليست آية فى ابتداء سورة كلها ، واستدلوا بتجويز الكثير من القراء حذفها فى التلاوة ، اذا كان القارىء واصلا بين السورتين .

٢ـ الشافعية : وهم يرون انها ـ بسم الله الرحمن الرحيم ـ آية من كل سورة على حدة ، وليست آية فى القرآن الكريم مرة واحدة كما ذهب اليه المالكية .

٣ــ الأحناف : وهم يرون أن البسملة آية من القرآن الكريم كله ، وليست آية من كل سورة مستقلة ، ولو كانت آية من كل سورة ما حذفت عند الوصل فى القراءة بين السورتين (١) والفرق بينهم والمالكية واضح ، وهو أن المالكية على مفتتح السور بالقراءة بينما الاحناف ركزوا على عد كل سورة على سبيل الاستقلال .

ومن البين أن وجهات الفكر امتدت حتى ولجت مسألة فهم النقل المنزل نفسه ، ولذا وجدنا ادلة الفريقين ـ المالكية والاحناف ـ واحدة ، والنتائج متخالفة والفروق الدقيقة قائمة ، وماذلك الا من باب الاجتهاد الفقهى فى النقل المنزل نفسه ، وهو ما يعرف بالفكر الصحيح .

٢ــ تحريم دراسة علم الكلام :

ظن قوم من المسلمين ان علم الكلام بدعة وشبهتهم أنه لم يكن له وجود فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا عرفه الصحابه ولا ـ تعرض له التابعون وحيث إن كل بدعة ضلالة فلا شك أن دراسة علم التوحيد بدعة على هذه الناحيه .

---

(١) الشيخ / محمد الأمير / حاشية الأمير على شرح عبد السلام المالكى للجوهره ص ٦ ط الحلبى ١٩٤٨ م .

بل أن بعضهم ذكر أن تعلمه يورث البغضاء ، ويزرع فى القلوب العداوة ، وينزل الأشقاء منازل الأشقياء ، كما أنه محشو بكلام الفلاسفة ، وربما نسب بعضهم التحريم الى صاحب مذهب فقهى مشهور كالامام الشافعى (١) حتى يجوز فى الناس قبولا ، ويصود على اترابه سيطرة وعلوا .

لكن جاء فى المقابل فريق من علماء المسلمين ، دعوا الناس الى تعلم الكلام ، والأخذ بكل اطرافه ، وفقا لجدل الخصوم ، ودفاعا عن العقيدة من الاتجاهات المضادة لها ، ولذا ذكروا أن علم التوحيد أشرف العلوم كلها ، وهو مقدم عليها جميعها ، ودراسته واجب كفائى .

ثم أكدوا أن علم الكلام " أشرف العلوم من كونه اساس الأحكام الشرعية ، ورئيس العلوم الدينية ، وكون معلوماته العقائد الاسلامية[٢] وغايته تقرير العقيدة الاسلامية ، ورفع الشبه الوارد عليها مما تصوره افهام الخصوم .

---

(١) لا أوافق على تسميتها عقائد ، انما هى عقيدة واحدة لها أجزاء جاء بها الحديث الشريف ، وفى حديث جبريل الامين ، فمن آمن بواحدة وكفر بالباقى فهو كافرا جماعا ، اعاذنا الله من هؤلاء واولئك

(٢) الامام الباجورى — تحقيق المقام على كفاية العوام ص ٢٥

وغايته الفوز بالسعادة الدينية والدنيوية ، وبراهينه الحجج القطعية ، المؤيد أكثرها بالادلة السمعية — التى مدارها على النقل المنزل قرآنا كريما أو سنة نبوية .

وما قيل من الطعن فيه ، والمنع من تعلمه ودراسته وتدريسه فانما هو للمتعصب فى الدين ، والقاصر عن تحصيل اليقين ، والقاصد افساد عقائد المسلمين ، والخائض فيما لا يفتقر اليه من غوامض المتفلسفين ، والا فكيف يتصور المنع عما هو أصل الواجبات وأساس المشروعات . (١)

اذن نحن امام الفكر الدينى حيث تبنى كل فريق رأيه ، وقدم وجهة نظره ، ودافع عنها بما رآه قائما معه ، سواء فى ذلك القائلون بالحرمة أم القائلون بالوجوب ولو كانت الادلة فى المسألة قطعية الدلالة ما كانت بحاجة الى هذا الخلاف ولما وقع فيها هذا الجدل .

من ثم رأينا المحرمين يذمون دراستها المترددين على معلميه وينصحون بالابتعاد عنه فى كل نواحيه ولا يدرون كيف يدافعون عن عقيدتهم ان هم هدموا علم التوحيد مثلا ، بل ما هى الطريقة الامثل

---

(١) الامام الباجورى — تحقيق المقام على كفاية العوام ص ٢٥

لتقرير العقيدة الاسلامية ان لم يكن علم الكلام .

كما رأينا الميحين تعلم التوحيد ينصحون المبتدى أن يشتغل بتعلم الكلام قبل ان يشتغل بعلم الفقه لأن الأول علم التوحيد متعلق بالعقيدة ، بينما الثانى علم الفقه متعلق بالاحكام ، علم العقيدة متعلق بالاصول بينما على الفقه متعلق بالفروع ، والمعروف ان المتعلق بالاصول يقدم على المتعلق بالفروع حتما .

يقول المبيح تعلم التوحيد :

أيها المبتدى لتطلب علما ∴ كل علم عبد لعلم الكلام

تطلب الفقه كى تصحح حكما ∴ ثم اغفلت منزل الاحكام (١)

ان الخلاف القائم بين محرمى تعلم الكلام ومبيحيه ، انما هو خلاف فى الفكر فقط ، لكن ميدانه المعلومات التى جاءت أدلتها ظنية الدلالة وليست يقينيه ، لأنها لو بعدت عن الظن الى اليقين لكانت أدلة يقينية ولا يجحد اليقينيات إلا مكابر ، كما لا ينكر البدهيات إلا الأحمق .

ثم هذا الخلاف راجع للمتحاورين فى ثقافتهم ، وربما عدم اتفاقهم على مصطلحات محددة ، كمن يعرف القرء فانه حيضوطهر ، ومدة

(١) تحقيق المقام ص ٢٥

ومن يعرفه بانه طهر وحيض من غير مدة وعلى هذا فالقرء موجود فى القرآن الكريم بلفظه ، لكن معناه محتاج الى تضافر الآراء الفقهيه فى المسألة .

٣ـ تحريم دراسة المنطق :

نظر بعض المفكرين المسلمين الى المنطق فما راقهم أمره ولا صدقت معهم نتائجه ، ولا طابقت الواقع المقدمات ، ومن ثم حرموا دراسته ، واصدروا أحكاما فيها من القسوة ما يزيل الجبال الشم ويزلزل ثوابت الأرض ، ولم تكن عداوتهم للمنطق الا لأمر ظنوه شرعيا فى حدود فهمهم للنقل المنزل ، ومن خلال الرغبة فى الدفاع عن العقيده ، فلما اصدروا احكامهم عليه وقفوا له موقف اللدود العداوة فحرموا دراسته ، وحرموا النظر فيه ، وفسقوا معلمه ، وبدعوا متعلمه .

من ثم بدت لنا فرق ثلاث :

الفرقه الأولى : المحرمون لدراستة (١)

وقد ذهب الامامان — ابن الصلاح والنواوى — الى تحريم النظر

---

(١) منهم الامام ابن الصلاح وهو الحافظ الفقيه — تقى الدين ابو عمرو بن الصلاح عبد الرحمن ، تفقه على والده الصلاح شيخ بلاده فى حياته ، وله آراء فى التفسير والفقه والحديث والاصول والنحو .

فى المنطق ، وتحريم دراسته واستخدامه على كافة النواحى ، حتى ضربوا الأمثال فى هذا التحريم من امثال : من تمنطق فقد تزندق. وقد سايرهم جمع من امثالهم المتجهين معهم لنفس الفكرة .

وقد بنى التحريم عندهم على مجرد احتمالات فرضية منها :

١ — أن التحريم قائم على أن اليهود والنصارى يشتغلون به ، فلا يصح أن يشتغل به المسلم ، ولكن هذا الغرض ساقط لأن الطب والنحو والأكل والشرب مما يشتغل به اليهود والنصارى ولم يقل أحد بتحريمه .

٢ — ان التحريم قائم على أن هذا المنطق مخلوط بضلالات الفلاسفه ويخشى على الشخص ان مارسه وقوعه تحت سيطرة المنطق فتتمكن العقائد الباطلة من قلبه .

ولكن هذا الغرض انما يكون لدى غير ممارس السنة والكتاب ، وهو مجرد فرض احتمالى ، والمراد فى مثل هذه الأمور أن يقع أمر التحريم على ناحية يقينية .

٣ — أن التحريم قائم على سد الذرائع وأنه مقدم على جلب المنافع .

ولكن هذه الجهة غير قائمة أيضا لأن باب سد الذرائع

قائم على النتائج المترتبة ، غير أنه لم يقع ممن درسوا المنطق من خلال قريحة صحيحة وعقيدة سليمة ، ما يعكر الصفو ، أو يكدر الحال ولهذا فان القائلين بالتحريم لم تنهض لهم أدلة (١) .

الفرقة الثانية : الموجبون دراسته (٢)

وقد ذهب الامام الغزالى الى هذا وأكد أن تعلمه فرض كفاية ، وكرر أن من لا معرفة له بالمنطق ، لا يوثق بعقله ، وسماه معيار العلم ، وميزانه ، لأن المنطق من وجهة نظر الغزالى هو الميزان الذى توزن به الأفكار ، فيعرف صحيحها من فاسدها ، فما كان صحيحا منها تمسك به ، وما كان فاسدا أهمله ولا يكون ذلك الا بالمنطق ، لذا أوجب دراسته ، وتعلمه ، وتعليمه ، وهو رأى الجمهور على ما مال اليه الملوى والعطار وغيرهما .

الفرقة الثالثة : جواز دراسته (٣)

وهذا الفريق قد ذهب الى الجواز لكن بشروط منها :

---

(١) والامام النواوى هو الامام المشهور محى الدين صاحب التصانيف الكثيره المباركه المشهوره ، وهو ابو زكريا (٦٣١—٦٧٦هـ) — والف السيوطى فى التحريم رسائل منها — القول المشرق فى تحريم المنطق وصون المنطق والكلام عن فنى المنطق والكلام — راجع حاشية الباجورى على متن السلم ص ٢٦

(٢) الامام الغزالى مال الملوى الى أن هذا رأى للجمهور ص ٤١ شرح السليم المنولاق .

(٣) الامام الرازى ، امام الحرمين ، البيضاوى — الجرجانى ، السعد وكثير غيرهم .

١ـ أن يكون الدارس له سالم القريحة

٢ـ أن تكون عقيدته سليمة

٣ـ أن يكون الغرض التعرف على كيفية تحصين الآراء فى ممارسة الفهم للكتاب الكريم والسنة النبوية المطهرة ·

وقد تحدث عن هذه الآراء شعرا صاحب السلم حيث قال :

والخلف فى جواز الاشتغال ∴ به على ثلاثة أقوال
فابن الصلاح والنواوى حرما ∴ وقال قوم ينبغى أن يعلما
والقولة المشهورة الصحيحة ∴ جوازه لكامل القريحة
ممارس السنة والكتاب ∴ ليهتدى به الى الصواب (1)

اذن تحريم دراسة المنطق ، انما هو حكم شرعى فى مسألة متعلقة بالمعرفة الانسانية ،والفكر الانسانى ، كما أن وجوب دراسته حكم شرعى كذلك ، بل ان القائلين بالجواز كان حكمهم شرعيا أيضا ،ومن ثم بأن لنا أن هذا كله من باب الفكر الدينى ، لأن صيغة الحكم ولغته قائمة على ناحية الدين ، لكن لما كانت الأدلة ظنية جاء الامر فيه احتماليا وتلك سمة الفكر الانسانى عامة ·

لذا يحسن ذكر نبذة من أقسام المنطق حتى نرى أيها الذى تعلق به الخلاف ، وأيها الذى عليه الاتفاق ، ثم نكشف عن وجه الحكم

(1) هو العلامة عبد الرحمن الأخضرى ــ متن السلم ص ٩ ط الحلبى ·

الشرعى فى المسألة — فما هى اقسام المنطق ؟

المنطق عند العلماء قسمان :

القسم الاول : ما كان خاليا عن ضلالات الفلاسفة المكفـــرة ..
وهذا الاختلاف فى جواز الاشتغال به ، بل هو فرض كفاية ، علـــى
أهل كل اقليم ، لأنه يتوقف عليه رد الشكوك فى علم الكلام ، وهـــو
فرض كفاية ، وما يتوقف عليه فرض الكفاية يكون فرض كفاية ، ومحل ذلـك
اذا لم يستغن عنه بجودة الذهن ، وصحة الطبع (١) .

ولذا لم يحتج اليه الصحابة رضوان الله عليهم ، لأنهم كانـــوا
جيدى الذهن ، صحيحى الطبع ، ومثلهم فى عدم الاحتياج اليـه
التابعون ، والأئمة المجتهدون ، واصحابهم .

القسم الثانى : ما كان مختلطا بشبه الفلاسفة (٢) سواء كان تحت
مباحث منطقية وكتب منطقية ، وكان مبسوطا فى كتب علم الكـــــلام
المختلطة بالمباحث الفلسفة والمنطقيه اليونانية ، والتى تحمـــــل

(١) حاشية الباجورى على متن السلم ص ٢٥ وضربوا أمثله للمنطـــق
الخالى عن الضلالات من أمثال مختصر السنوسى والكاتبـــى
وشرح القويسنى وابن عرفة وايساغوجى لشيخ الاسلام زكريا والخونجـــى
والسعد والمتأخرين فهذا الاخلاف فى جواز الاشتغال به .
(٢) شرح الشيخ القويسنى على متن السلم فى المنطق ص ٩٥ ط —
الحلبى .

العقائد الباطلة ، فان هذا القسم وقع الخلاف بين الفقهاء فيه على النحو التالي :

ا - فريق يرى أنه حرام .

ب - فريق يرى أنه واجب .

جـ - فريق يرى جوازه لكامل القريحة ، ممارس السنة والكتاب ، القاصد الاهتداء الى الصواب .

وما أظن المسألة - بعد ذكر ما مر من نماذج - تحتاج مزيد شرح ، أو تعليل بأن الفكر الديني موضوعه النقل الديني ، وطبيعته الفكر الديني - ترجح بعض الآراء طبقا لقدرات المفكر ، وتغليب بعض الوجهات نظرا لامكانية الناظر اليه ولا يعيب الموضوع الديني اخفاق المفكر حوله ، أو عدم قدرته على الوصول الى الصواب فيه .

انما يعيب المفكر أن يدخل الى ميدان الفكر الديني من غير أدواته التي لابد منها ، حتى يخوض في بحاره ، أو يحاول التعرف على لآلئه وأصدافه ، كما يوضع في الإعتبار أن المفكر متى اجتمعت له الشروط ، وصحت فيه الملكات ، فليس معنى هذا أن رأيه صار حجة على الآخرين ، فما هي الا وجهة نظره التي ارتضاها ، والنتائج التي توصل اليها .

كما لا يغرب عن ذى بال أن تعصب المفكر لرأيه له خطورتـــه على النتائج التى وصل اليها ، كما له من السلبيات على الاهـداف والغايات التى يحاول ان تضطرد ، ولذا رأينا المفكرين المسلميـــن الأوائل يقولون :

أن رأيى خطأ يحتمل الصواب ، ورأى زميلى صواب يحتمل الخطأ ولذا تثبت أراؤهم ، واستقامت افكارهم ، وحسنت دولتهم ، وقلـت العداوة والشحناء وزاد الاصدقاء وانقرض الأعداء .

وهذا الفكر الدينى فى الاسلام هو الفكر الاسلامى الذى نعنيه ، فاذا لم يكن فى هذه الناحية ، من كون الموضوع نقلا منزلا ، وكـــون المفكر مسلما ، وكون المعالجة على ناحية اسلامية كان الأمر بعيدا عن الفكر الاسلامى ، حتى ولو انتسب اليه ، وحقائق الاشياء اكبر الادلـــة على نفسها .

القسم الثانى : الفكر غير الدينى :

ونعنى به المحاولات الذهنيه التى يقوم بها الانسان منطلقا مـــن محاولات العقل وحده كالعلوم الرياضية ، فى الكم المنفصل والـــكم المتصل ، والعلوم الطبيعية فى الموضوعات الفيزيائية ، فان هـــذه العلوم وامثالها كالفلك والنجوم ، وعلم الهيئة والمساحة والمستجدات

العلمية كالكمبيوتر والحاسوب الآلى ، وما كان من قبل الغيب العقلى فانها جميعا تسمى فكرا لأنها حركة ذهنية ، لكنها ليست من الفكر الدينى انما هى من الفكر الانسانى .

لكنه فى حدود ما تدلى به الفطر الانسانية ، وتبذل فيه مجهود أتها العقول البشرية ، فالطب والهندسة ، وعلم الأدوية وخواصها ، مما يخضع للتجربة ، وتأتيه الملاحظة ، وتؤيده عادة التجربة ، فانها جميعا فكر لكنه ينسب الى موضوعه .

فان كان موضوعه مما يتعلق بالهندسة عرف بأنه فكر هندسى ، وان كان فى مجال العلوم الطبية — وقاية وعلاج — فهو فكر طبى وان كان فى مجال التهجين السلالى للنبات فهو زراعى أو نباتى ... وهكذا فان الفكر غير الدينى الذى يمكن اعتباره مما يتعلق بالمسائل الدينوية انما يقوم على قدرات العقول ، ومنتجات الأفكار ، ولا حيلة لتسميته بغير ما اطلق عليه .

وهذا الفكر الفيصل فيه اطروحات النتائج المعملية ، كما أنهم فى الدراسات المعملية يكرر الاساطين أن العلم لا يعرف الكلمة الأخيرة ، كما أن كافة النتائج فيه احتمالية وليست قطعية ...

استبعدنا العلوم الرياضية وما كان من هذا القبيل .

على أننا ننوه الى أن الفكر الديني يجب أن يحكم مسيرته والغايات المرتبة بعضها على بعض ـ فيه الحكم الشرعي حتى لا يفلت الزمام ، ويقع الحرب بدل السلام ، لأن العقول قديرة على انشاء وسائل التدمير بكافة الوانها واشكالها ، فاذا لم يكن الفكر غيرالديني محكوما بالشرع فربما انفلت من أيدي اصحابه ، واستعمل في الشر بدل الخير ، والتدمير بدل التعمير ، وهنا تقع الكارثة .

ثالثا : موضوع الفكر

سلف القول بان الفكر لابد له من موضوع يظهر فيه ، طبقا لمعطيات العلم ، فان كل فكر لابد له من موضوع ، فان كان فكرا دينيا كان الموضوع هو النقل نفسه ، وان كان فكرا غير ديني تغيرت أقواله طبقا لموضوعه ، وبالتالي يكون في حاجة الى :

١ـ مفكر .

٢ـ موضوع ،

٣ـ طريقة المعالجة .

وقد بان لنا أن المفكر هو الذهن الانسانى ، والتفكير عمل الذهن نفسه ، لكن هناك فروقا بين المفكر ، وبين المفكر ، وبين الموضوع للتفكير فيه ، أو الفكر نفسه .

من ثم فإننا بازاء الموضوع نرى انه فى المعقولات والمحسوسات فى الماديات والروحانيات ، فى النقل المنزل ، وفى غيره مما يمكن اعتباره موضوعا للفكر ومادة للتفكير ، يسبح فيها المفكر بقدر طاقته والعوامل المحيطة به والظروف الملائمة لما يفكر فيه ، والغاية التى هدف اليها من هذه العملية العقلية أو النفسية أو الروحية أو كلها معا .

وربما احتيج لضرب أمثلة فهاك واحدا قد يستبين به الأمر

* أ- فى المعقولات

١- الشعور بالاجهاد الذهنى :

هذا الشعور النفسى يراه المرء بداخله ، غير قادر على القيام بوظائفه الفعلية على النحو الذى يشعر معه بالرضا فيما يقوم به ، أو يحاول أزاءه من ثم يبذل مساعيه لعرض نفسه على المتخصصين فربما وجد عندهم مايشكو دواء

تتكون العناصر هي :

١- الاجهاد الذهني هو الموضوع ،

٢- المعالج للمسألة : هو المفكر ،

٣ - تنفيذ تقديم أفضل الحلول للمسألة هو الفكر نفسه .

<u>مثال آخر</u>

٢- التردد في أتخاذ القرار :

يشعر كثير من الناس في أنفسهم عجزا عن اتخاذ قرار محدد بأزاء مسألة من المسائل لا لأنها من الامور الغيبية عنه ، وانما لتردده بين المثالب والمحاسن ، أو بين الحسن والأحسن ، أو السيء والأسوأ ، ويظل في تردده حتى يمر وقت طويل دون ان يتخذ هذا القرار حتى ولو كان في أبسط الأمور وأصغرها .

هنا يضطر الى عرض نفسه على أهل الخبرة - ان كانت قدراته العقلية والنفسية فيها بعض الأمل - ويقص عليهم أمره الذي وقع له ، وظروفه التي تحاصره ، والواقع الذي حبس نفسه في داخله ، كأنها أو هام الكهف لا يحاول أن يخرج منها ،أو بعيدا عن ميدانها .

فتكون العناصر هى :

١ـ التردد فى اتخاذ القرار ـ وهو الموضوع

٢ـ الطبيب الذى ستعرض عليه المشكلة ـ وهو المفكر

٣ـ كيفية رد الاعتبار ، والخروج به من دائرة التردد الى منطقة
الفقه وصنع القرار ، وهو الفكر نفسه .

وهكذا فان الفكر لابد له من تلك الأمور الأساسية ، وربما صاحبته أمور فرعية ، وهى النتائج المترتبة ، والغايات المنتظرة والأهداف المرجوة من الفكر والمفكر فى حدود الموضوع المطروح نفسه

الموقف الذى أميل اليه

ونحن فى هذا الكتاب انما نهدف الى بيان أن التصوف والصوفية ، والافكار التى نمت فى عقول الصوفية ، انما هى أفكار إسلامية ، لأنها مستمدة من النقل المنزل موضوعا ، وقامت فى عقول المفكرين المسلمين ، وكانت غاياتهم بلوغ الرضا ، وان يحوزوا لدى الخالق جل علاه منزلة القرب منه جل علاه .

كما أن طاغيهم لم يفرقوا بين :

١ـ طبيعة الفكر الاسلامى وقابليته للرأى والآخر ، كما فى طبيعة

من قبول لكافة المعاني المطروحة في حدود اللغة والاصطلاح والعرف السليم .

٢- أنهم غلطوا حين نسبوا اليهم ما لم يقولوا به ، وصوروهم في صور الاراجوزات ولاعبي السيرك ، وأكلة الحيات ، وهي كلها مما هم فيه براء ، بل انهم يرفضون هذه السلوكيات ، ولا يرتضون أن تكون لهم تلك الاوصاف .

٣- أن الصوفية أعلنوا من أولهم الى آخرهم ، أن علمهم مقيد بالقرآن والسنة النبوية المطهرة ، فاذا نسب اليهم ما يخالف القرآن الكريم والسنة المطهرة ،وجب ضربه بوجه قائله ، اما هم فلا ينسب اليهم ،مهما صورت عنهم ، وان نسب اليهم ، وجب صرفه عنهم ، واعتباره كأن لم يكن ، او نسبته الى اصحابه ورده عليهم ، وليس على الصوفية .

٤- أن الفكر الصوفي في مفرداته ، ومصطلحاته ، ومعانيه ، لا يجب النظر فيها قياسا على مصطلحات الأخرين ، لأن كل علم له مصطلحاته وله قواعده التي تقوم عليها ، وظروفه التي تلائمه ، ولا يمكن وضع احداها مكان الأخرى ، والا وقع الضلال ، واتهام الابرياء ، وليس

ذلك من شأن المسلمين .

٥- ان الخلافات السياسية يجب أن تكون في حدودها فلا ينسب للصوفية في فكرهم الديني سلوك الآخرين السياسي ، وكم رأينا في السياسة من ألاعيب فاتهموا العلماء بالجهالة ، والأمناء بالخيانة ، وأهل الشرف والعفة بالنذالة لمجرد كسب سياسي ، أو انزال الآخرين من فوق عروشهم التي صعدوا اليها بكد اليمين وعرق الجبين وليس هذا من شأن المسلمين .

٦- النظر الى سلوكيات الصوفي على أنه بشر يخطئ ويصيب ، لا على انه نبي مرسل فما كان من سلوكياته متفقا مع الشرع الشريف ، حبب الى طالبيه وما كان مخالفا نصح له فيه والدين النصيحة .

٧- عدم الاعتداد بالسلوكيات التي تصدر عن المنتسبين ومحاسبة الصوفية عليها ، فالله تعالى وهو أحكم الحاكمين قال في قرآنه الكريم " وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ " .

وقوله تعالى : " كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ " وقوله تعالى " كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ

الْمُجْرِمِينَ "

والمعروف أن المسؤولية الشخصية قد نبه اليها الشرع الشريف في آياته القرآنية ، والأحاديث النبوية ، ومن ثم فلا نحاسب الصوفي على سلوك المنتسب ولا نعتبر السلوكيات السلبية قواعد صوفية ثم نختلق لها من المبررات ونؤكد على انها سلوكيات صوفية ، بينما هي أبعد ما يكون عن التصوف والصوفية وأقرب لسلوك المنتسبين وافكار المدعين الذين لا هم لهم الا الزيف والضلال .

٨- أن ينظر الى الاراء والافكار الصوفية بعين بعيدة عن الكراهية والعداوة المستحكمة ، ومحاولة الغلبة ، وشهوة الانتصار ، فما الحكمة الا من الله والله تعالى يقول : " يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ "

٩- كما أن العلم نور ، وهو من أقسام الله عز وجل ، ورد الحديث الشريف في قوله صلى الله عليه وسلم " من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ، وانما أنا قاسم والله عز وجل يعطى ، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله "

وليس معنى هذا أننا نميل الى تبرئة المتهمين ، أو من يقعون

فى الزيف والضلال كما لا نعفى من يتعرض للنقل المنزل بما لا يملكون من المسئولية بل أننا نؤكد أنه اذا ما تعرض لكتاب الله أو سنة رسوله من غير أداة فقد ساقه اندفاعه الى التسفيه وقاده جهله الى السقوط .

ومع هذا فاننا ننادى بالنصح لهم والارشاد وربما الترفق معهم او القسوة عليهم حسب ما تقتضيه الظروف ، بغية أن تعبر القافلة الحائرة أرض الصحراء الموحشة التى باتت السباع فيها تنتظر الضحايا وركضت فيها الوحوش ترقب الفريسة تلو الأخرى ولا نجاة الا بالحق اهتداء ، ولنحق صحة اعتقاد وسلوك .

٩ ـ النظر فى الافكار الصوفية على أنها اجتهادات بشرية فى حدود النقل المنزل فان أصاب صاحبها ـ مع مراعاة القواعد التى يسير عليها ـ فبها ونعمت وان لم يصب فله النصيحة ، وهى من حقوقه ، وعلينا بها فهى من واجباتنا ، وعلى هذا النحو ان شاء الله نسير ، فما هى الافكار الصوفية ؟

الحق أن الافكار الصوفية متعددة ، ولكنا سنحاول الحديث عن بعضها ، حسب ما تقتضيه ظروف تلك الدراسة ، وما تفرضه الاوضاع

الضيقة ، التى تفرض سلطانها على النفوس ، وقوتها على الامكانيات

والله من وراء القصد .

وسأحاول تقديم الفكر الصوفى من خلال صورة بسيطة لما يرمى اليه أصحابه فربما تبلغ الصورة الخافتة مبلغ الأصل ، أو تنال من المختلفين منال الطبيب الساهر من مريضه المتلون المضطرب ، حتى تبلغ معه موطن الداء ، ويتعرف على مناحيه فربما اقتلعه من جذوره فكان خيرا .

وربما نبلغ من المؤمن درجة التعرف على ما يصدره من أحكام لها خطورتها على اخوانه من أهل القبلة ، قرنائه فى العقيدة ، فربما رأى أحكامه أوهاما ، فيقف من نفسه موقف الحكيم فيضع الشيء فى موضعه .

أو موقف الناقد البصير لما يقدم عليه ، وحينئذ تتحقق المصلحة المرجوة ، من تجميع الشمل المتفرق ، والتئام الجرح المتفتق ، وما ذلك على الله بعزيز .

رابعا : خصائص الفكر :

يتميز الفكر الدينى بخصائصه التى ينفرد بها عن غيره من الفكر الغير دينى ، فذلك الفكر الدينى محكوم بالنقل الدينى نفسه ،

ومن ثم فهو فهم فيه ، وحركة فى حدوده ، سواء كانت تلك الحركة عميقة كما يحدث فى تصوره للسمعيات ، أم حركة عقلية خفيفة كما يحدث فى تصور المعانى القائمة عليها .

لذا فان الفكر الدينى له خصائص منها :

١- انه فهم للنقل المنزل وفى حدوده ، بحيث لا يتجاوزها ، والا خرج عن الفكر الدينى الى غيره .

٢- أنه قابل للآراء الأجتهادية المطروحة فى المسألة ، لأنه من قبل النقل المنزل جاء ، والنقل المنزل من عند رب العالمين ولا تعرف المعانى الواردة فيه على وجه الحقيقة ، والا كان غلقا لباب الاجتهاد ، وانهاء لقدرات العقل .

٣- أنه حركة مستمرة لا تعرف التوقف ، كتيار الماء فى البحر لا يعود الى الخلف ، ولا يتوقف عن الحركة طبقات لعمليات المد والجذر ، وظروف الجو ، وكذلك الفكر الدينى فهو متدفق مستمر ، لا يعرف الرجوع للوراء الا للتثبت واعتبار الماضى ركائز يسير عليها وينطلق منها .

٤- أنه لا يهمل النتائج التى سبقه اليها غيره من أهله ما دامت فى حدود النقل المنزل قائمة ، ومن خلال النصوص الصحيحة

مستمدة ، ومن ثم لا يشعر بالاغتراب صاحبه ، لأن المتداول هو من نفس البنية الأساسية التى يعتمد عليها ، وهى النص الدينى والفكر الدينى .

٥- خضوعه للتأويل ، وقابليته للتداول ، ذلك أن الفكر الدينى ليس نصا ، وانما هو فهم ، والافهام لا عصمة لها ، وكذلك فانه يمكن حملها على ما يوافق الرأى الاكثر صوابا ، كما يمكن تأويلها على ناحية مقبولة لا تخرج بصاحبها عن الأصول المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، ولذا فهو يقبل التداول بين كافة الأمور التى من هذا الأصل المستمد .

٦- انطلاقه ودفع العقل الى المزيد

الفكر الدينى الاسلامى لا يغل العقل بقيود ، وانما يدفع للانطلاق مع استخدام اعلى الامكانيات ، حتى ولو كان ذلك فى الأمور المعقولة ، أو التى لا يجد لها أسانيد حسية ، فمثلا :

المساحة بين الجسم والروح ما هى ؟

الروح على الحقيقة ما هى ؟

النفس الانسانية ما هى ؟

العواطف والضمائر ما هى ؟

ولا شك أن الاجابات على مثل هذه التساؤلات لم ترد فى النقل المنزل على سبيل القطع وانما وردت على ناحية التوجيه والتنبيه ، والدفع بالعقل الى بحثها ، لكن من غير تسرع أو عجلة ، ودون تهاون أو ملل ، قال تعالى " وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُم مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا " .

أما خصائص الفكر غير الدينى فمنها :

١ـ التردد وعدم الحسم :

ذلك أن الاساطير والخرافات والأوهام والأضاليل ما هى الا نزعات نفسية ، وتصورات عقلية ، ورصيد فكرى ربما لا توجد قواعد له ، ومن ثم فهو واقع مع صاحبه فى دائرة التردد وعدم الحسم .

٢ـ سرعة التبدل :

الفكر غير الدينى سواء جاء فى الجانب المادى ، أو الناحية الأدبية فانه سريع التبدل ، وآية ذلك ما نشاهد من قواعد ظنوها ثوابت فما مر عليها الا وقت قليل فاذا هى فى طى النسيان فكم صوروا الأرض على قرنى ثور ، أو على جسم حوت ، وكم صوروا

الأشقال في ارتفاعها والنزول ، ثم ما لبثت تلك أن انهارت على أعتاب الفكر المستحدث .

٣ـ قابليته للانهيار :

لأنه في الجانب المادي قاصر بحكم ثقافة أصحابه ومعلوماتهم والامكانيات وهم يقررون أن العلم لا يعرف الكلمة الأخيرة ، كما أنه في الجانب الروحي قد أخفق الى أبعد حد ، حتى وصل بأصحابه الى الانتحار واليأس والعدم أو دفع بهم الى الأمراض التي لا شفاء منها ، ولا يرتجى من خلفها .

بل انهارت كل هذه الأفكار ، وسقطت تلك الآراء يوم ولدت ، ومع كونها من نسيج الفكر والهام الوجدان ، ووحيق العواطف ، الا أنها غير مأمونة ، ومن ثم تهاوت ، وهو من أبرز خصائصه .

٤ـ عدم العصمة له

الفكر غير الديني لا عصمة له ، انه فكر نما في صدور أصحابه ومن ثم لا ضوابط له يقوم عليها ، ولا عصمة في انطلاقاته ، فمرة يجنح نحو الرغبة وأخرى نحو الغريزة ، وثالثة يميل الى

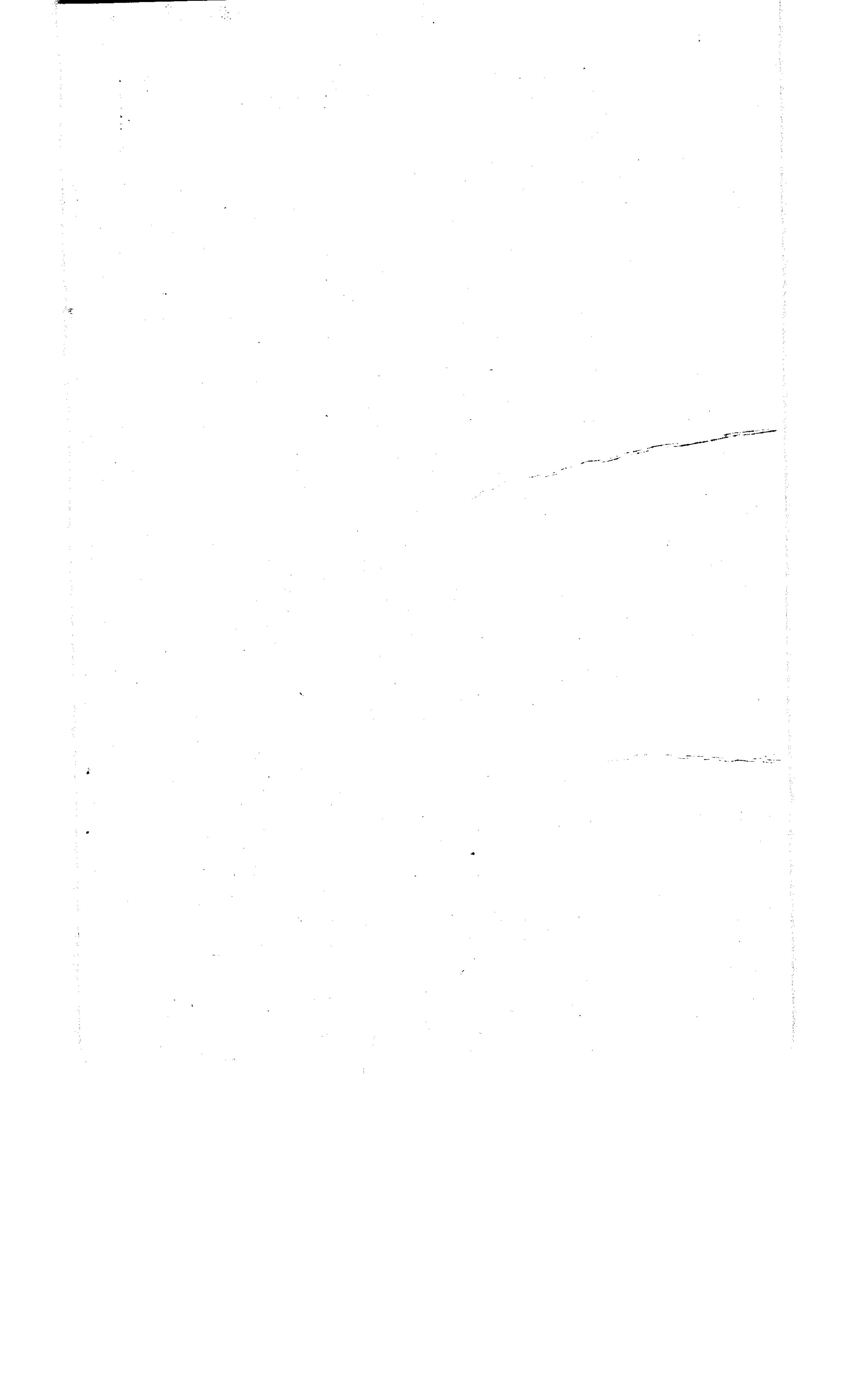
الاتجاه العنصرى ، أو النزعة العرقية ، وعلى هذا فان كل اجزائه تكون قابلة للرد ، وغير مأمونة الخطأ .

أضف الى ما سبق أن الفكر الدينى تصونه — ان استقام نصوص مؤكدة ، وبالتالى فان بلوغه السلامة أمر وارد ، وقفزه الى شاطئ اليقين أمر ممكن فلا شيء يمنع من الوصول الى الغاية المرجوة ، ما دامت القواعد سليمة ، والاسس صحيحة والغاية نبيلة .

اما الفكر غير الدينى فانه غالبا ما يضرب بعضه البعض الآخر وتهدم أجزاؤه بعضها كأنها عوالم من الغابات الكبير فيها يبتلع الصغير ، ولذا رأينا مفكرى أوربا كلا منهم يطعن الآخر " كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا " ولا عاصم لهذا الفكر ، انما العصمة لله وحده ، ولكتابه ورسوله .

الفصل الثانى

((شبهات خصوم الفكر الاسلامى))



ربما يخفى كثير من الدارسين التعرف على الفوارق بين النقل المنزل ، وهو الاسلام الدين القويم وبين فهم هذا النقل المنزل ، وأعنى به الفكر الذى هو حركة النفس الانسانية فى الأمور المعقولة ؛ ومن بينها النقل المنزل نفسه ، ويعرف بالفكر الاسلامى .

من ثم نتج عن عدم التفرقة وجود خلط كبير بين المفاهيم حتى بات المخالف لغيره فى الرأى كافرا رغم أنها مخالفة فى الرأى فقط ، وحتى لو كان ذلك الرأى فهما فى النقل المنزل نفسه ، فان كلا منهما محاول الاصابة ، فان بلغها فبها ونعمت ، وان لم يبلغها فذلك فضل الله ، يؤتيه من يشاء ، والمخطىء يعذر ، والمصيب ينصح ، فما الاصابة الا نوع من الحكمة الالهية .

قال تعالى "يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ (١) وقد فهم السلف الصالح رضوان الله عليهم هذه المسالة بوضوح ، فما طعن واحد منهم على مخالفة الرأى ، ولا عمد الى تجريح من هو عدل ، ولذا علت بين الناس اقدارهم ، وسمت منازلهم ، فاجتمع شملهم ، وقويت شوكتهم ، وكانوا بحق انجما زهرا .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٦٩

ثم أنه خلف من بعد هم خلف تخطوا القواعد الثابتة ، واصطنعوا لأنفسهم انماطا من النظر العقلى ، اعتبروها قواعد أصيلة ، حكموا على مخالفيهم فيها بالتجهيل مرة ، وخفة الرأى أخرى ، وضيق الفهم ثالثة وشطح الوجدان رابعة ، وتحجر العقل خامسة ، وغموض الفكر سادسة حتى بات المجتمع الاسلامى يقع أغلب أفراده بين دائرتين كلتيهما سوء ، هما :

١ — دائرة الإتهام بالكفر

٢ — دائرة الإتهام بالخطل فى العقل

بل توزعت الاتهامات ، وتبودلت الطعون ، ولم ينج من تلك الا من عصمه الله ، فحبس نفسه بعيدا عن الخلق ، وعاش فى مدارج النسيان يرتقى فيما بينها صعودا ، وكانت حياته فى نظرهم انطواء ، بينما هو الى كتاب الله قد انحاز ، وسنة رسوله التزم ، وبتقوى الله فاز ، ومع هذا وصله الاتهام بالانعزال عن المجتمع ، والسلبية فيه .

ومن المؤسف له ان خصوم المسلمين فطنوا لهذه وتلك ، فاستعملوا الدس والوقيعة ، وحاولوا اغراق المسلمين فى بحار من الشك لا قرار لها والقائهم فى آتون القلق والتربص ، حتى ساق الما... ...سهم ...ناء ال... المتعطلة ارضاء لحاكم جهول ، أو نفس لئيمة ، أو ... به لوثة ... ...

خرب ،مستخدما الدين كوسيلة يقنع بها الرأى العام ، وهو على يقين من أن أخاه مما نسب إليه براء .

لذا تنوعت فى نظر الخصوم المثالب ،وكثرت الاتهامات ، حتى عد البحث العلمى مقلبة ، والاجتهاد مغبة ومنقصة ، وسلامة الرأى عوارا ، والالتزام بالنقل المنزل جمودا ، وثالثة الاثافى أن هذه الاتهامات كانت تدور فى وقت واحد بحيث تغطى جوانب الفكر الاسلامى وربما كان المغزى لها ، والمحاول اشعالها هو الخصم اللدود مستغلا بعض ضمائر خربة ، أو تسلل الى نفوس ضعيفة ، ولذا سأعنى بذكر شبهاتهم دون الالتفات اليهم فمثلا :

١– الصوفية :

اتهموا بأنهم أصحاب الشطحات ، ودعاة الاذواق ، والأشواق وحراس المواجيد والأحوال ، حتى وصل الأمر الى الزعم بأن الصوفية هم سبب تأخر المسلمين ، وهم مصدر الضلال كله ، وأن مقاماتهم والاحوال لا تعبر الا عن حالات مرضية .

والمشكلة فى صاحب الاتهام نفسه ، لأنه لم يفرق بين الصوفى والمدعى ، بين المقام والحال ، ولا بين اللفظ والمعنى ، كما لم يتبين العلاقة بين المصطلح الفنى واستخدامه عند الصوفية ، أو اطلاق

اللفظ عند غيرهم ، من ثم كانت اتهاماته فى غير موضع صحيح ، ولا يفعل ذلك الا كاره مذم ، أو محب وله ، لأن الله قال فى قرآنه الكريم "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١) .

٢ـ أولياء الله .

اتهموا بأنهم أصحاب التواكل ، وترك الأخذ بالأسباب ، والوقوع فى دوائر ادعاء الالهام ، حتى كانت الوضعية المنطقية ، والوضعية الطبيعية ودعاتهما يرددون هذه الشوارد التى لا تمت الى واقع صحيح ، بل تمادى دعاتهما فاتهموا أولياء الله بأنهم أصحاب الخرافات والأوهام .

والذى يؤسف له أن هؤلاء المتشدقين بالعلم لم يعرفوا شيئا عنه أنهم لم يعرفوا أن الله ذكر أولياءه فى القرآن الكريم ، وبيّن أنهم المتقون ، وأنهم لا يحزنون فى الدنيا ، ولهم البشريات فى الدنيا ، ولهم البشريات الأخرى فى الدار الآخرة ، لأنهم جمعوا بين الايمان والتقوى .

---

(١) سورة المائدة ـ الآية ٨

قال تعالى : " أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ، الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ " (١) كما أن هؤلاء المدعين للعلم لم يعرفوا الفرق بين التوكل ، والذى هو الأخذ بالأسباب ، والاعتماد على الله تعالى ، وبين التواكل الذى هو ترك الأسباب كلية والاحتماء بالتواكل ، وليس ذلك من صفات أولياء الله ، لأنهم جميعا أخذوا بالأسباب ، بل وبذلوا ما أمكنهم فيها .

ان أولياء الله يضعون الأشياء فى مواضعها ، فهم يعلمون أن الأسباب ترجع فى مجملها الى خالقها العظيم جل علاه ، وان تواردت الأسباب أو تسلسلها لا يعطيها قدرة أكبر من حجمها ، ثم هى فى النهاية عاملة بقدرة الله وتدبيره ، ميسرة بارادته تعالى وإحكامه ، فاذا أراد الله أن يوقف عملها فعل .

من ذلك أن النار سبب الاحراق ، ومع هذا ألقى فيها الخليل ابراهيم بأيدى أعدائه ، فقال الله للنار " كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ " ، فكانت بردا وسلاما ، وخرج ابراهيم منها سليما معافى ووقع كيد خصومه فى نحورهم ، وردهم الله على أعقابهم .

(١) سورة يونس — الآيات ٦٢ / ٦٤

قال تعالى : قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ، وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ، فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (١) وقوله تعالى " قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ، قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ، قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ ، وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٢)

ولئن كان الأمر مع الخليل ابراهيم معجزة حسية ، الا انها وردت مع واحد من أولياء الله الصالحين كرامة له ، وعلامة على قبوله عند ربه ذلكم هو أبو مسلم الخولاني ، الصحابي الجليل الذى كان وليا من أولياء الله ، فحين ادعى مسيلمة الكذاب النبوة ، حاول اجبار الخولاني على الاعتراف بأن الكذاب نبي ، ولكن الكذاب لم تنفع حيلته مع الخولاني ،

من ثم أمر الكذاب أتباعه باشعال نار شديدة البأس ، ثم طلب منهم القاء الخولاني فيها ، وفعلا نفذوا في الخولاني ما أمرهم به

(١) سورة الصافات ــ الآيات ٩٥ / ٩٨

(٢) سورة الأنبياء الآيات ٦٦/٧٠

الكذاب من القاء الولى فى النار ، فلم تمسسه النار ، وخرج منهـــا سالما كأنه لم يكن قريبا منها ، ففضلا عن أن يدخلها ، وما ذلك الا من باب الكرامات الواسعة التى يجعلها الله تعالى لأوليائه (١) " ان أوليــاؤه الا المتقون " .

وعندما دخل الخولانى المدينه المنورة فى زمان حكم الصديـــق ، وربط دابته بجوار المسجد النبوى ودخل للصلاة عرفه عمر بن الخطــاب ، وكان لم يره من قبل ، ولكنها فراسة المؤمن ، فسأله : أأنت أبو مســلم الخولانى ؟ فقال الخولانى : أنا عبد الله ، وهنا أدرك عمر أنه هو ، وأن الاولياء يستحيون من ذكر كراماتهم كما تستحى المرأة من دم حيضها

هنا اعتنقه عمر بن الخطاب ، وذهب به الى الصديق وأجلســـه بينهما ، ثم بكى عمر وقال الحمد لله الذى جعل فى أمة محمد من يلقـى فى النار ولا يحرق بها ، كما فعل الخليل ابراهيم عليه وعلى نبينــــا أفضل الصلاة وأتم التسليم ، ولو كان الأولياء غير متوكلين على اللــــه ما كانوا من أهل النجاة ، ولا يعرف أولياء الله الا أهل محبة الله .

---

(١) الاستاذ الشيخ مصطفى الحديدى الطير — اقباس من نور الحــق ص ٢٨٩ والقصة مشهورة .

٣ — المتكلمــون :

اتهمهم الجدليون بأنهم أصحاب الغموض ، والاشكالات التى لا ترفع حتى ولو كانت قضاياهم فى أمور العقيدة الاسلامية ، تقريرا لهـــا أو دفاعا عنها ، بل ضم اليهم المناطقة اما تبعا أو استقلالا ، حتى باتت مسألة الانتساب للمتكلمين مثيرة للقلق ، وربما مودية بصاحبها الى الالحاد (١) .

والحق أن المتكلمين أنواع : منهم المدافعون عن العقيدة الاسلامية الذابون عنها ، المرجعون سهام الأعداء الى صدورهم ، ومنهم المقررون لها ، الواقفون بها عند ابلاغها للناس صافية نقية ، حتى تبلغ بهـم مواطن الرشد ، اذ العقل يستطيع الاستدلال على وجود الله ، لكنه يعجز عن التعرف على صفات الله ، وأنها تسعة وتسعون ، وأن منهـا صفات الذات ومنها صفات الأفعال (٢) .

كما أن من المتكلمين مَنْ فرّق بين أفعال الله وأفعال العباد ، وبيّن أن هذه التفرقة موصلة الى هدف سام وفكر نبيل ، اذ أنها لن تدع المرء يحكم عقله فى قضايا الغيب التى لا حيلة له فيها ، كما أنها تجعل المرء

(١) وهذه الأحكام لا تنطبق الا على المتكلمين بغير القواعد الشرعية

(٢) راجع مطالع الأنظار للبيضاوى ص ٩

يقف باعتقاده عند حد التصديق اليقيني ، فلا ينسب لله ما لا تصح نسبته اليه ، وهذا العمل من الأهمية بمكان (١) .

ثم أن المتكلمين منهم أولياء الله ، دافعوا عن دينهم ، كواجب شرعي ، وقرروا العقيدة الصحيحة على الوجه المقبول شرعا ، وكانوا انجما في ليالي الحيرة ، ومنهم محدّثون ، وفيهم فقهاء ، وبينهم علماء أصول ، ورجال تفسير ، فاذا سمح باتهامهم فقد انسحب الحكم على كل فكر اسلامي ، وتلك سمة الخصوم الذين يحاولون هدم كل بناء جميل ، أو تشويه كل فكر سليم ، ما دام منسوبا الى الاسلام .

٤- الفلاسفة المسلمون : (٢)

وقع الحيف والجور على الفلاسفة المسلمين ، واندفع البعض محاولا النيل منهم ، فلما أعيته الحيل ، وسقط منه الدليل ، عدى على اعتقادهم ، محاولا الهاء الناس بالخيالات ، وادهاشهم بالاوهام زاعما أن عقيدتهم لا تسلم ، كيف لا ، وما هم الا أصحاب تحليق في

---

(١) راجع كتابنا الإيمان بالغيب جـ٤ ص ٥٧٠

(٢) هناك فرق بين الفيلسوف المسلم وغير المسلم والخلط جور وظلم .

فى المجهول ، والضرب فى أعماق الغيب ،حتى ضرب لهم المثل بأنهم كالاعمى الذى يبحث فى غرفة مظلمة ، فى وسط ليل بهيم ، عن قطعة سوداء ، لا وجود لها فى الواقع الفعلى .

وما أظن صاحب الاتهام قد عرف الفلسفة وأن منها اسلامية ويونانية (١) وغيرها ، وأن الفلسفة التى رفضها الفقهاء والفلاسفة المسلمون انما هى الفلسفة التى تبحث عن الله تعالى ، لأنها تعتبر الله غائبا تبحث عنه ، أو مفقودا تريد الوصول اليه ، فتلك فلسفة كافرة (٢) لأن الله موجود والكون شاهد بأن الله موجود . كما أن الاتهامات التى زعموها لم يقل بها أحد منهم ،كما لم تصح نسبتها اليهم ، انما هى مدلسة قصد بها تشويه جمال أفكارهم ، ودقة أبحاثهم وعلوهم على غيرهم ، ومن يراجع مؤلفاتهم يجد ذلك بينا فى عباراتهم (٣)

(١) والاسلامية تستدل على وجود الله بأدلة عقلية ، والاخرى تبحث عن الله ولذا فهى كافرة .

(٢) ومثلها اليونانية والسوفسطائية والوضعية بنوعيها

(٣) راجع فلسفة الفارابى والكندى وابن سينا وابن رشد وغيرهم

٥ ـ الفقهاء

اتهمهم الخصوم بأنهم أصحاب القلوب الجافة ، التى ما عرفت رحمة ، ولا مستها نسمة محبة ، رغم أنهم الفقهاء ، المدخل لتعريف العباد كيف يؤدون للخالق جل علاه صحيح العبادة ، اذ هم الواقفون على الأحكام الشرعية المخبرون بها ، الواصفون لها ، وهم إن كانوا قد شغلوا أنفسهم بالفروع ، إلا أنها ـ الفروع ـ المطبق الحقيقى للأصول .

والغريب أن هذه الاتهامات لا علاقة لها بالفقهاء ، متى راعينا أن المعنى الحقيقى للفقه هو الفهم ، فهل يلام أهل الفهم ممن لا يفهم وهل يكون موقف اللائم الْعَيِيِ مقبولا ، أم أنه حكم الهوى ، ونزعة البغض ، وطبيعة التعصب الأعمى التى لا تعطى صاحبها الحق فى إصدار حكم مقبولة حيثياته ؟ .

ان الفقهاء أصحاب عقول واعية ، وقلوبهم زاكية ، انهم من أوعية العلم ، قال الله تعالى " فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١) وقال

---

(١) سورة التوبة الآية

صلى الله عليه وسلم " من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين (١) .

كما أن الفقهاء حبسوا أنفسهم على الأحكام الشرعية ،تعلما وتعليما تفقها وتطبيقا (٢) لكونهم قضاة بين الحكم التكليفى وبين المكلفين ، فربما انعكس ذلك على بعض السلوكيات ، لكنها انعكاسات طبيعية من كثرة الممارسة (٣) وهل تريد من الفقيه الذى يقيم حد القصاص على القاتل ، أو حد الرجم على الزانى مثلا أن يكون فى ليونة ، إنه لو كان كذلك ما استطاع تنفيذ حكم شرعى ، بل وربما سقطت بين المخالفين مكانته .

٦ــ الأصوليون : (٤)

اتهمهم خصومهم بأنهم أصحاب الفكر الجامد ، والقواعد التى لا سند لها ، وفوق ذلك فهم فى نظر خصومهم صورة الاستبداد الفكرى

---

(١) حديث شريف

(٢) وبالتالى عرفت المذاهب الفقهية المشهورة والتى منها :
١ــ المذهب الحنفى ، ٢ــ المذهب الحنبلى ، ٣ــ المذهب الشافعى ، ٤ــ المذهب المالكى ، ٥ــ المذهب الزيدى ، ٦ــ المذهب الجعفرى والآراء التى نسبت لأتباع هذه المذاهب الفقهية ، وكلهم من رسول الله مقتبس ، ومحاول تطبيق الحكم الشرعى .

(٣) ربما كان هذا الغالب ، لكن هذه المحاولات لها دور فى سلوكيات الفقيه من اعتداده بنفسه ، وتمسكه بمظهره الخارجى ،وتعامله مع الأشريس بحذر شديد .

(٤) هناك فرق بين علماء الأصول ، وبين علماء الفقه ،او الفقهاء يدركه من له إلمامة بهما .

ومظهر التخلف عن مسايرة العصر ، بل أنهم — من وجهة نظر خصومهم — أضيق الناس أفقا ، و أوسعهم ذما وجدلا .

ويبدو أن هذه الاتهامات قصد بها غير علماء الأصول لأن علماء الاصول من اكثر الناس معرفة بربهم ومن أجلهم فقها فى دينهم ، انهم يبذلون قصارى جهودهم لاستنباط الحكم الشرعى من أدلته الشرعية . فهم للقرآن الكريم دارسون ، وعلى السُّنَّة المطهرة قائمون ، ولأحكام الله تعالى من النصوص مستخرجون .

كما أنهم مظهر الفكر الصحيح ، انهم أصحاب منطق راشد متفاعل مع الواقع العلمى المعاش ، ومطابقته للأحكام الشرعية من عدمه ، فهم يقيسون ، والقياس عمل عقلى ، كما أنهم يستنبطون ، وهو من أيسر العمليات العقلية المشروعة ، بعيدا عن الجدل والسفسطة .

ثم ان علماء الأصول قد جعلوا الحكم الذى يتعلق به الفعل أقساما ثلاثة ، وكلها تؤكد استعمال القوم عقولهم ، بل والقفز بها فوق كافة السدود التى تعيق عن الانطلاق ، والأقسام الثلاثة لابد من تعريف كل منها ، كما عرف الحكم نفسه ، مما يؤكد أن القوم بلغوا درجة عالية فى الفهم ، وأن اتهامات الخصوم مجرد تخرصات وأوهام وظنون ، وكلها بغرض الطعن على دين الاسلام ، وعقلية المسلمين .

مع أن دين الاسلام هو النقل المنزل المعصوم فى كل شىء ، وهو الوحيد المعتبر شرعا ، كما أن المسلمين لم يتركوا علما الا ضربوا فيه بسهم ، ولا فنّا الا شاركوا فيه بأعلى قدره ، ولا مفردا الا جدوا فى استخراج العديد من المعانى له (١) من ذلك مثلا :

أ ــ الحكم (٢)

* عرفه أصحاب العرف العام بأنه اسناد أمر لآخر ايجابا أو سلبا (٣) وهو فى الايجاب يكون حكما موجبا ، وفى السلب يكون سالبا .

* عرفه المناطقة: بأنه ادراك أن النسبة واقعة بين الموضوع والمحمول ، أو المقدم والتالى ، أو ليست واقعة ، وبالتالى فالحكم يطلق على النسبة التامة ، كما يطلق على المحكوم به ، وعلى المحكوم عليه .

* عرف عند الاصوليين بأنه : خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين

(١) لسنا ههنا نقدم حصرا وانما مجرد أمثلة
(٢) الحكم غير الحاكم ، فالحكم الشرعى الحاكم فيه الشرع ، والعقلى الحاكم فيه العقل ، والعادى الحاكم فيه العادة
(٣) الشيخ محمد بن احمد عرفة الدسوقى ، حاشية على شرح أم البراهين ص ٣٢ .

ايجابا أو نفيا ، بمعنى اثبات أمر لأمر أو نفي أمر عن أمر"(١)

٢ـ أقسام الحكم : (٢)

لم يقف الأصوليون موقف الجنود كما زعم الخصم ، وانما استعملوا كل ما أمكنهم من ملكات حتى في مجال التشريع ووضع القضايا العامة ، والقواعد الكلية ، ولذا رأيناهم يقسمون الحكم الى :

أ ـ الحكم الشرعي : وهو خطاب الله تعالى المتعلق بأفعال المكلفين بالطلب ، أو الاباحة ، أو الوضع .

ب ـ الحكم العقلي : ما يدرك العقل ثبوته أو نفيه من غير توقف على تكرر ، ولا وضع واضع .

جـ ـ الحكم العادي : وهو اثبات الربط بين أمر وأمر ، وجودا أو عدما بواسطة تكرر القران بينهما على الحس ، مثال ذلك الحكم على النار بأنها محرقة ، فهذا حكم عادي ، ـ معناه أن الاحراق يقترن بمس النار في كثير من الأجسام لمشاهدة تكرر ذلك على الحس

(١) المصدر نفسه ص ٣٢

(٢) راجع نهاية السول ، منهاج الوصول ، المفتاح والاحكام في الأحكام ، وغيرها من كتب الأصول .

وليس معنى هذا أن النار هي التي أثرت في احراق ما مسته ، ولا دلالة عليه أصلا ، وانما غاية ما دلت عليه العادة هو الاقتران فقط بين السبب والمسبب وليس الفعل والتأثير (١) فهل يعد هذا المجهود يقع الاتهام للأصوليين ؟ .. ان هذا لشيء عجيب ولا تصدر تلك الاتهامات الا عن قلب مليء بالكراهية لهم ،والحسد عليهم ، ولا شأن لقول الخصم الذي لم يقم على قواعد مقبولة ، الم يقف الأصوليون بالفكر موقف المنظم له ، الحريص على الدفع به حتى يكون في أعلى قمة من التطوير والمسايرة لكافة الظروف المحيطة بل والتعامل معها في كافة صورها ، واستحداث مستجدات تقفز بها الى الامام .. فهل يتهم هذا الفكر بالجمود أو غيره ؟ ..

٧ — المحدثون : (٢)

علماء الحديث — دراية (٣) ورواية (٤) — نضر الله وجوههم ، لم يسلموا من كيد خصوم الاسلام ، مع أنهم أهل العلم بكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفعله وتقريره ، وكل ما يتعلق بالسنة النبوية

(١) حاشية على شرح ام البراهين ص٣٣ / ٤٢

(٢) أهل الحديث : مصطلح قصد به الوصف ، والا فان المحدثين فقهاء ، ومنهم متكلمون ، وبينهم صوفية ، وكل مناحي الفكر .

(٣) الدراية : هي سند الحديث ،الرواة الذين نقلوا الحديث ، وتعرف بالسلسلة .

(٤) الرواية : هي متن الحديث ،الألفاظ التي حملت الحديث نفسه ، وتعرف بألفاظ الحديث ومفرداته .

المباركة ، ولكن خصومهم اتهموهم بأنهم حشوية ، وقعوا في دائرة التجسيم أو التشبيه ، أو أنهم مجرد نقلة يقدمون نهاتهم السيئة على الأعمال الحسنة (١) .

انهم يقدمون الجرح على التعديل ، والطعن من سماتهم ، وهل بعد تقديم القدح على المدح من دليل أكثر وضوحا من هذا وابانة منه انهم أصحاب نوايا مضطربة ، وضمائر ما تزال تئن من الضربات الموجعات والتوجيهات التي ما نالت منهم شيئا .

والحق أن هذه الاتهامات كلها زور كبير باطل ، وبهتان عظيم أما لماذا ؟ فلما يلي :

أولا : ان المحدّثين ممن نضر الله وجوههم ، ووسع في أرزاقهم وبيض صحائف أعمالهم ، ما داموا لخدمة السنة المطهرة قصدوا ، وعلى مراقبة القائمين بها استمروا ، بل لم يذكر التاريخ أن خادما للسنة ضيّق عليه ، أنه من كثرة الملازمة لها ، صارت روحه في نعيم الرضا

(١) المؤسف له ان بعض هذه الاتهامات ربما صدرت عن رجال لهم في الفكر الاسلامي منزلة راجع المطالب العالية للامام الفخر الرازي جـ ٧ ، ٨ تحقيق د / احمد حجازي السقا ، وراجع الاربعين في أصول الدين له أيضا ، وما أظن هذا الا من آثار الخصومات الشخصية التي انطلقت الى أبعد مدى .

شوفل ، وبين أنسام الحياة تسير .

ثانيا : إنهم نقلة السنة الناقدون لما ينسب اليها ، المميزون بين صحيحها من الدخيل عليها ، كما يفرقون بين صيغها وصور ابلاغها انهم ينقدون كل ما ينسب اليها نقد الصيارف للدراهم ، فهل بعد هذا يتهمون بأنهم حشوية ، ما هذا الا حكم الخصم السياسى أو الفكر الذى يحتاج مراجعات ، أو رأى المستشرق الذى فشل فى العثور على فُرْجة ينفذ منها حتى يكيد للسنة المطهرة ورجالها .

ثالثا : ان عقيدة أهل الحديث هى الرؤية السلفية ، انهم وصفوا الله تعالى بما وصف به نفسه من غير أن يسمحوا لأنفسهم بالتدخل بين الوصف والواصف ، بين النازل والمنزل ، فما دام الله قد وصف نفسه فلا حيلة الى البحث عن الكيف ، ولذا اثبتوا لله تعالى كل ما أثبته لنفسه من غير كيف حتى يكونوا مع النص المنزل أمناء ، ومع صحيح الفطرة أسوياء ، فهل بعد هذا يتهمون بأنهم حشوية ، أو مجسمة ؟

رابعا : أنهم فى نقدهم للرواة انما يلتزمون منهجا يقوم على جانبين :

الأول : حسن الظن بالرواة لأنهم مسلمون ، لكن من حسن الظن

الحيطة ، والحذر ، وهو ما عرف بالجرح ، فليس معنى الجرح عند هم ما يفهم من ظاهر اللفظ ، انهم أعمق فكرا ، وأرق عبارة ، ولذا فان الجرح عند هم هو الحيطة والحذر فى الحكم على الراوى والرواية ، والحكم على المتن والسند ، وهو منهج على انتقلت به الحضارة الانسانية أكبر نقلة عرفتها ، ولكنها لم تنسبه أبدا الى علماء السنة المطهرة .

الثانى : التثبت ، ولذا كان هذا الجانب كبير الأهمية ، وهو ما يمكن فهمه من مصطلح التعديل عند هم ، ومن ثم رأيناهم يفحصون هذا التثبت فى كل من الراوى والرواية ، بالشروط التى رأوا أنها تكفل لهم بلوغ السلامة فى هذا الجانب . (١)

ومن المقرر أن كل أصحاب فن من الفنون ، أو أدب من الآداب انما يعمد ون الى وضع قواعد لهم تكون بمثابة الركائز الأساسية التى يستند ون اليها ، ولا يبتعد ون كثيرا عنها ، ولم يعترض على هذا أحد ممن لهم ولع بالعلم ، أو معرفة بقواعده الصحيحة ، فهل يعاب أهل الحديث ان هم سلكوا هذا الطريق ، ما أظن شانئهم الا قد وقع فى تناقض عجيب ، أو سلوك غريب .

(١) راجع أصول التحديث للقاسمى .

وكيف لا ، وأهل الحديث هم حملة السنة النبوية المطهـــرة ، والمبلغوها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لخلق الله ، والمحافظون عليها من أيدى أعدائها والمتربصين بها ، ولذا فهم أحق بالعـــون ، وأولى بالدفاع عنهم ، أما خصومهم فما أظنهم على طريق الرشد ساروا ، ولا الى الحق قصـــدوا .

ثم أن السنة النبوية المطهرة هى المصدر الثانى للتشريع الاسلامى بعد القرآن الكريم ، فهى تترك السنة لأغراض خبيثة فى صدور أصحابها على سوء طوية ، كما أن السنة المطهرة هى مع القرآن الكريم العنصـر الفعال فى العقيدة والسلوك والقيم والأحكام لقوله صلى الله عليه وسلم " تركت فيكم ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدى انه كتاب الله وسنتى "

من ثم فان المحافظة على السنة أمر شرعى ، والقيام بها حكـم شرعى كذلك ولا يرتكها أو يهاجمها الا من حرم نورها .

٨ ـ السلف الصالح :

لم يسلم السلف الصالح من توجيه الاتهام لهم ، رغم أنهم أقرب من غيرهم لسلامة العقيدة ، وأذكى فى القيام بالعبادة ، وأتقى الصدور وأكثرها سلامة ، لكن خصومهم عدوا اليهم فاتهموهم بأنهم مشبهة عاشوا فى عباءة السلف ، أو ارتدوا عباءة التشبيه باسم السلفية .

بل اتهموهم بأنهم اهملوا عقولهم ، وعاشوا بوجدانهم ، كأنها الميراث الوحيد تاركين عقولهم لقضايا فيها الوهم أكثر مما فيها من الحقيقه ، كما اتهموهم بأنهم معطلة تركوا انفسهم للأسباب بعيدا عن كونها علاقة عادية أو عقلية أو شرعية .

وعلى الرغم من ان السلف من أجل الناس محافظة على دينهم ، وأقربهم الى صحيح الايمان ، حتى عرفوا بأن أمرهم فى العقيدة اسلم ، الا أن هذا كله لم يتضح لهم عند خصومهم ، والحق خلاف ما زعمه الخصم لأن السلف هم العدول من كل أمة ، متى كانوا السلف الصالح . (١)

---

(١) ومعنى كون السلف عدولا أتاحة الفرصة لمزيد تأكيد لأوصافهم

أما أنهم مشبهة فهذا لم يثبت عليهم (١) أو تأكد أحد من
وقوعهم فيه ، ثم إن التفويض فى العقيدة لا يعتبر تجسيما (٢) ، وإنما
هو التفويض ، فقول الامام مالك : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول
لا يمكن فهمهما إلا على أن الاستواء معلوم لغة ، وتلك حقيقة لغوية
أما من حيث المعنى المراد فذلك مما لا يعلم حقيقته إلا الله سبحانه
وتعالى ، وهو الذى قصد إليه الامام مالك رحمه الله .

من ثم فهم لا يفوضون على معنى التعطيل لأن ذلك ليس من
شئونهم ، ولكنه التفويض المقبول شرعا ولا يخرج عن المعنى المقصود
بحال من الأحوال ، ثم إن اهمالهم لعقولهم ليس من شأن السلفية ،
إذ لم يرد ويخلد أحاد هم هذا الاهمال الغريب ، وكيف يهملونها
وما خلقها لهم إلا الله جل علاه ، وهل بعد كل هذا ينسب إليهم
أنهم يهملون عقولهم ، إن هذا مما لا يستقيم معه رأى مقبول .

كما أن الوجد إن ليس مما يمكن الاعتماد عليه فى أمور الحياة
الدنيا ، فهل يعتمد عليه القوم رغم عدم جدواه فى المسألة ، ما أظن

---

(١) المشبهة : هم الذين شبهوا الله تعالى بأحد من خلقه ، وهذا لم يقل به السلف الصالح .
(٢) التجسيم : وصف الله جل علاه بأنه جسم وان له أجزاء يتكون منها ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

حصيفا يفوز به ، أو يعتمد عليه ، أو حتى يستشهد به أو يستند اليه
ان الحقائق سافرة لا تخشى صحوة الشمس ولا وطأة النهار .

أجل الوجد ان مشاعر فياضة ، وأنس بالله وفوز به ، لكن هـــذا
الوجد ان لم يهمل العقل أبدا كما أن الوجد ان لا يصح أن يكـــون
ميزانا يقف به صاحبه عند حد التكاليف الشرعية ، أو العمليات العقديه
وحد هـــا انما هو نافع فى ترقيق المشاعر ، وتهذيب السلوك ، وتلك
سمة من سمات السلف الصالح ، ولا يقدح هذا فيهم ، أو ينقـــص
من أقد ارهم .

ثم ان وصف السلف بأنه الصالح لا يقبل وصفا آخر غير الصالـــح ،
ولا يمكن فهم هذا الوصف الا على الناحية الأكثر جودة ، والأصـــح
اتصافا ، وبالتالى فلا يلحق بالسلف الصالح تلك الاتهامات الا من لم
يعرف من هم السلف الصالح على الحقيقة .

لكن هناك البعض يدعى نسبته الى السلف ، ثم تصل به المسألة
حدا لا يمكن مقارنته بالسلف أبدا ، كالقول بالتجسيم أو التشبيـــه
أو الوقوع فى التأويل المعيب ، أو التفسيرات التى تبعد بأصحابهـــا
عن الميدان التطبيقى ، لما كان عليه السلف ، ومثل هؤلاء لايحسبون

على السلف ، ولا يعقل أن يكونوا منهم لما فى مناهجهم من مخالفات لما كان عليه السلف الصالح .

ثم أن السلف الصالح سلوك وليس أفراد ، لما سبق التركيز عليه من ترجيح أن السلف الصالح هم الذين التزموا كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وما أجمع عليه الصحابة وسار عليه التابعون ، وهذا المنهج الفكرى قد اختص به السلف وحدهم ، ولذا فنهم لا يعمدون الا لمناهج محددة ، كما أنهم فى المسائل الخلافية يلتزمون ظاهر اللفظ مع تفويض المعنى لله رب العالمين .

ومثل هؤلاء يعرفون بسماتهم الفكرية ، ومناهجهم الحياتية ، وانطلاقاتهم التى ابتدءوا فيها ، والأغراض التى هدفوا اليها ، وبالتالى فاذا انتسب أحد اليهم ثم خالف ما هم عليه فلا يمكن أن يتحملوا هم تبعية غيرهم ، أو تنسب اليهم أخطاء من نسبوا أنفسهم الى ميد ان لم يخضه السلف ، والا كان الحكم جائرا ، والنسبة ظالمة.

من ذلك ما نسب للامام الشافعى رضى الله عنه أنه قال :

" لأن يلقى العبد ربه بكل ذنب ما عدا الشرك أحسن من أن يلقاه بعلم الكلام (١) فان هذا القول على اطلاقه لا يقبل لأن الامام

(١) الشيخ ابراهيم الباجورى — حاشية تحقيق المقام على كفاية العوام ص ١٧ ط الحلبى ١٣٦٨هـ / ١٩٤٩م

الشافعي كان متكلما ، وانما المقبول هو كراهية الامام الشافعي لعلم الكلام المخلوط بالفلسفة اليونانية والقائم على أصول الفكر اليوناني وهو التخريج المقبول للمسألة .

أما تحريم النظر في علم التوحيد القائم على الأصول الشرعية فذلك مرأى المبتدعة الذين قالوا ان النظر في علم التوحيد حرام (١) بمثل هذا القول منهم لا يخفى فساده ، وضلالة معتقده لكل عاقل ، اذ هو مصادم للكتاب والسنة ، واجماع المسلمين الذين يعتد بهم ، والزعم بأن الصحابة رضى الله عنهم لم يتكلموا فيه كذب وافتراء ، ولا تلحق هذه الأحكام السلف ابدا .

٩ — النجـاة :

لم تبتعد الاتهامات عن النحاة طالما كان هؤلاء من المفكرين المسلمين (٢) اذ المراد هو الفكر الاسلامي بغض النظر عن القائم به وما اذا كان نحويا أو حرفيا ، وما اذا كان بلاغيا أو أديبا ، ولـذا رأينا الاتهامات تقوم على :

---

(١) المصدر السابق ص ١٧

(٢) لأن الغرض النيل من الفكر الاسلامي والمفكرين المسلمين ، وربما كرر هذه الاتهامات غر أو ألكن لارميين .

١ ـ أن النحاة لم يفقهوا من العربية الا أواخر مفرداتها ، أن همّ النحوى كله منصب على أواخر الكلمات اعرابا وبناء ، أو ـ بدايات‌ها تعريفا وتنكيرا ، أو بعض الاوصاف المتعلقة بالمفردات كالتذكير والتأنيث أو الافراد والتثنية والجمع (١)

٢ ـ أنهم جمدوا مع المفردات التى يتناولونها وصارت معهم كأنها مقدسة ، فما عادوا يذكرون سوى هند ، ودعد ، وعمرو وزيد ، كما لم ينل حظه لديهم سوى احدودب وا شوشب واخرنجم ، وثعلبك وسيبويه ، ومثل هذه المفردات لا تمثل فكرا ، كما لا تنهض عليها حضارة .

والحق أن هذه الاتهامات خالية مما تستند عليه ، لأن صاحبها لم يدر بخلده أن الذى ركز عليه هو الاعراب والبناء فى أواخر الكلمات وهما من أدق العمليات الفكرية ، بهما تتضح المعانى ، وتظهر الفوارق ، والا لاختلطت المعانى ، بل ربما وصل المؤمن باعرابه الخاطىء ـ عتبة الكفر بدل الاعتماد على ركن الايمان (٢)

(١) هى بعض موضوعات النحو لكن الزاعم جهول مخلط بين المفردات والموضوعات .

(٢) وقع مستشرق جهول فى مريم أم سيدنا عيسى عليه السلام فى قوله تعالى " كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا ،فزعم أن رزقا اسم شخص ، وليس وصفا لأنواع كثيرة ، ولو كان حسن النية ما وقع فيه . ثم إنه لو فقه نحو العربية لأدرك أن رزقا غير رزقه تماما والفوارق كثيرة .

كما أن المفردات التى دارت فى كتبهم ليست منحصرة فى زيد وعمرو ولا هند وحزام ، وانما هى مفردات قابلة لاوجه الأعراب ، من ثم ذكروها بعناية تيسيرا على المتعلم ، كما أن هذه المفردات ليست وحدها الموجودة لدى النحاة ، ومن أراد الحق فليرجع الى كتبهم لكن بنية طيبة ، وعقل مفتوح ، حينئذ ستظهر له الأمور على وجهها الصحيح ما دام قد التزم الحق والانصاف .

أضف الى ما سبق أن النحو ليس مقصورا على الاعراب والبناء ، والتذكير والتأنيث فهى بعض موضوعاته ، ومن المعروف أن كل فن له مبادئ ، وتعريفات ، ومسائل ، وموضوعات ، وأهداف ، وغايات ولا يحصر النحو فى قضايا محددة الا صاحب الحكم العجول ، أو النوايا غير السليمة ، ومثله لا يقبل رأيه ولا يصح حكمه .

على أنا نركز القول : بأن الاتهامات التى سلفت قصد بها الفكر الاسلامى فى جانب من جوانبه فى محاولة يائسة للنيل من الفكر الاسلامى ، ومثل هذه الاتهامات لا يمكن قبولها لصدورها ممن فقد الحيدة فى الحكم ، والموضوعية فى الأداء ، والرغبة فى التعرف على الحقيقة ، والاحكام الْعَوَارُ ما هى الا تخرصات وأوهام وظنون .

والشواهد كثيرة من ذلك قوله تعالى " إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ " فضبط العلماء بالنصب اذا لم يكن مع العارف بقوانين العربية فربما وقع في الكفر[1] . . اذن ضبط الكلمة الذي هو من أعمال النحوي موصل لصحة العقيدة ، وسلامة الايمان ، فهل بعد هذا يقبل على النحوي مثل هذا الاتهام .

٠١ـ الصرفيون :

نظر خصوم الفكر الاسلامي الى الصرف فلم يرق لهم على مشرب ، أو يرقد خصمهم على مورد ، من هنا عمدوا الى علمائه يوجهون اليهم كل اتهام ، بغرض النيل منهم ، وبلوغ أقصى المثالب من نفوسهم ، حتى ركزوا اتهاماتهم على :

١ـ أن الصرفيين أحجار صامتة لا يعنيهم من العربية الا بنية الكلمة ، فلم يبذلوا مجهودا يمكن اعتباره فكرا ، لأن المفردات التى انحصروا فيها ليس بها مجهود عقلى ، وانما هى سلوكيات اللسان الذى انطلق اليها من أوليات أمره ، فالطفل ينطلق من مهده الى تلك المفردات يغزوها باستمرار دون أن يحتاج الى صرفى أبدا .

٢ـ أن همّ الصرفى من الكلمة مراعاة حروفها ، فسقط بين الصحيح والمعتل ، كما لم ينل من معارفها الا الحديث عن المثال والأجوف

(١) أو يكون له علم بالقراءات فيمكنه توجيه القراءة فيها على الوجه المقبول شرعا وحينئذ نفسر الخشية فى الآية على معنى المحبة لا على معنى الخوف .

والناقص ،وتكررت على لسانه الفاظ العلة والاعتلال والتصحيح والابدال حتى ما سلم احدهم من علة ، ولا صح لهم قول .

والجدير بالذكر ان هذه الاتهامات مجرد خيال حالم لم ينل من ليله الا السهد والجوى ، وقد غالبه النعاس واستعصت نفسه عن التسهيد والكرى ، وكان لسان مقاله يردد :

هذا فؤادى فامتلك أمره .·. فاظلمه ان أحببت أوفاعدل [1]

اما زعمه بأن الصرفيين أحجار جامدة ، فهذا مما يصف هو به إن قبله ، اذ كيف يكونون احجارا جامدة ولهم هذا الفكر الذى اعترف هو به ، وأنه متعلق ببنية الكلمة (٢) فهل للأحجار فكر ، الا ان كانت تلك الأحجار التى يقصدها هو نفسه احادها ، وماذا نفعل له وقد أرتضى أن يكون ضمن الأحجار ، بل وراح يعول عليها .

على أن تصوره غناء سلوكيات اللسان عن علم الصرف ، فهو الجهل بعينه ، لأنه لم يعرف الفرق بين النطق اللسانى ، وبين القواعد التى تضبط هذا النطق ،والفرق بينهما كبير جدا ، فالفكر عملية

---

(١) قصيدة عبد الله الفيصل الشاعر السعودى ، من أجل عينيك، وهو شاعر مطبوع ،ومن هذا الجيل وله دواوين شعريه عديدة بعضها نشر ، وبعضها ربما ينشر.

(٢) المراد ببنية الكلمة الحروف التى تكونت فيها ،فاذا لم تكن لنا بالصرف دراية ، فهل تعرف معنى قوله تعالى " لا يرقبون فى موءمن إلّا وَلاذمة "فهل تعرف الال من غير ان تكون لنا خبرة بالاعمال الصرفية ؟

عقلية واخراج هذا الفكر لغة تعبيرية ، وسلامة هذا النطق عمليــة لسانية (١) وكـــل منها ليست هى الاولى .

اما تصوره حصر الصرفى همه فى الصحيح والمعتل ، وأنـــواع الاعتلال والابدال ، فذلك مما خفى على الطاعن أمره ، اذ هـذه مصطلحات قصد الصرفيون اليها ، والقاعدة انه لا مشاحة فى الاصطلاح والا فهل يعاب أهل الحساب باصطلاحاتهم فى الجمع والضرب والطرح والقسمة مثلا . . . ؟

من هنا بأن لنا أن هذه الاتهامات لا ترقى لبلوغ غاية عند القوم كما لا يمكن التصديق بوقوعها فضلا عن ان ينال من علماء الصـــرف ، ثم الم يكن الصرفى هو الذى يأخذنا الى اصول المفردات فنعـــــرف معانيها ولو لم نعرف المعنى لوقع الخلط بين المفردات ، واذا وقــع الخلط لم يسلم مفرد كما لن تكون هناك معان محددة أبدا .

١١ـ البلاغيون :

أصحاب الفن الرفيع ، والفكر الهادف ، والخيال العارم ، لـــم

(١) العمليات الثلاثة يقع بينها التكامل . ١ـ عملية الفكر ٢ـ عملية التعبير عن هذا الفكر ٣ـ سلامة التعبير بحيث يكون المـــراد غاية الوضوح

يسلموا من طلقات الحسد التى وجهها اليهم الخصوم بل صاروا فى نظرهم أشبه ما يكون بلاعبى السيرك يزينون الكلمة على النحو الـــذى يريدون وينزلون بها الى حيث يشاؤن ، فمرة فى العلا يرفعون ، — وثانية بالحضيض ينزلون ، ومن ثم اتهموا البلاغيين بأنهم :

١ — أصحاب خيال لا مكان للحقيقة فيه (١) فهم فى بيانهم مع المجاز يتقلبون (٢) حتى سقطوا فيه من حيث لا يدرون ، ثم صعدوا الــى التشبيه (٣) مما فرقوا بين التبر وأحجار الطواحين ، ولا بيــــن البصل والعسل ، بل جل عدتهم أنثى لعوب ، وقعوا فى جمالها البدوى ، فقالوا : هذا كالبدر .. والبصل مثل العسل ،والتمر كالتبر فى حسن السبك (٤)

---

(١) الطاعن على قدر عال من الجهل ، فلم يعرف الفرق بين الحقيقة اللغويه ، وهى المرادة عند البلاغيين ،والحقيقة العرفيه والحقيقه العامة ،وحقائق الاشياء الموجودة على ما هى عليه ، وهذا الخلط هو السبب فى كون أحكامه بهذه السذاجة .

(٢) هناك مجاز لغوى وله اقسام ، ومجاز عقلى وله أقسام ، لكن الطاعن لا علم له بشىء منها والجهل مصيبة كبرى متى زعم صاحبه انه عالم .

(٣) التشبيه أنواع : منه تام الاركان ، ومنه ناقص احدها ، ومنه العقلى والحسى ، وهذه الانواع كلها تحتاج اتساع دراية وكثير دربة .

(٤) هذا من باب ضرب الأمثال حتى تكون اكثر وضوحا وليست مرادة — لذاتها .

٢– أنهم فى استعاراتهم لم يفرقوا بين ما تصح اعارته وتستحيل استعارته ، فا ستعاروا من الألكن للعربى عجمته ، ومن الزنجى للأبيض عروبته (١) ومن البليد للذكى غباوته ، ومن العارى للكاسى عباءته فقلبوا الحقائق ، وحطموا الموازين ، ولو بعدوا عن ما زعموه بلاغة لسلمت للناس احوالهم ، وصحت مفرداتهم ، واستقام لهم امرهم . .

٣– انهم فى الكنايات وقعوا فى جنايات ، اذ كيف تمشى جوذ ان البيت على العصا اتكاء أو سيرا واعتلاء كما أنهم حرموا الخمر فى شرعهم ثم شربوها فى كناياتهم ، واستشهدوا بها كأنها بطولات لهم ، ولم يسلموا من عبق العطر الفواح ، وأحضان النساء المفراخ .

٤– كما أنهم فى معانيهم قدموا وأخروا ، وصغروا وكبروا ، وحذفوا وأسندوا ، حتى تحولت الحقائق عندهم خيالات ، وصارت الوقائع الثابته خيالات ، وهم فى كل أحوالهم يزعمون تقديم بلاغيات .

٥– أما فى بديعهم فكله بدع ، ومع كونهم حرموا البدع الا أنهم انغمسوا فيها ، حتى جعلوا لها اجناسا وأطباعا واعتبروا هذه

---

(١) قصد عنترة بن شداد ،وفاته أن عنترة عربى ولا يعيبه أن تكون أمه حبشية .

وتلك من حسن السبك ، وجزالة اللفظ ، وخصوبة المعنى ، وماهى الا بدع وقعوا فيها ، وضلالات قيدوا أنفسهم بها .

غير أن هذه الاتهامات لا يمكن النظر اليها على أنها منتج عقلى ، انما هى جهالة جهلاء ، وضلالة عمياء ، لأن البلاغة العربية سمة من سماتها ، ولون من الوان الجمال الفنى الرائع ، الذى قام على مجهود العقل الخالص ، والوجدان الراقى والمشاعر الفياضة النبيلة .

كما أن كل تلك الاتهامات د نعها من البساطة بمكان انها صدرت عن جاهل بها ، لا علم له بما فيها ، أنه أشبه ما يكون بالطفل الذى يحطم الكمبيوتر لأنه لا يستطيع استخدامه ، ويرميه بأخس الصفات لعجزه عن حل مقرراته ، والتعرف على طرق التعامل معه .

والملاحظ أن الفكر الاسلامى لم يسلم من الطعن عليه والكيد له حتى بات المفكرون المسلمون فى جنح ليل ظليم ، طالت سويعاته واستبدت بالغيوم شمس الضحى ، ولم يكف المطر المنهمر عن الانصباب وما بقى للمفكر المسلم من أصالة الا أن رفع لربه أكف الضراعة حتى يرفع عنه تلك الظلمة .

وربما استجاب من لا يرد دعاء الحيارى ، ويقبل دعوات المظلومين ، فقال الله تعالى " يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . (١)

لكن أن ترد تلك الاتهامات من غير مسلم فذلك أمرا وارد ، وتوقع فى موطنه ، فكما عهدناهم — مستشرقين وغيرهم — للحق لا يتحرون وعلى الحق يجترؤن وللباطل ينادون وحوله يتعاوون ، فذلك شأنهم ، ولو كانوا منصفين لاتبعوا المنهج الحق ، وسلكوا طريق بحث الحقائق بانصاف وروية .

ومن المؤسف له ان هذا الاتجاه القائم على الاتهام والتجنى ، انما هو نوع من ضيق الأفق وفيه الكثير من التحكم البغيض الذى لا يقوم على قواعد مقبولة ، ولا ينم عن معرفة صحيحة ، أو تفكير مستقيم ، وما كنت أود أن يمارسه مسلم أبدا .

ان الواجب على المسلم هو النصح لأخيه ، والاجتهاد معه فيه بكل ما تيسر له من موعظة حسنة ، أو مجادلته بالحسنى ، من غير

(١) سورة هود

استعلاء ممقوت ، أو غلوا وشطط ، أو تسفيه أحلامه أو تصوير آرائه بالأوهام ، قال تعالى " أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١) .

مع الأخذ بالاعتبار أن العلم نور ، وأن هذا النور من قسم الله عز وجل ، ورد به الحديث الشريف من قوله صلى الله عليه وسلم " من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ، وانما أنا قاسم والله عز وجل يعطى ، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله (٢) .

والناصح أمين ، فان اخفى فقد خان الأمانة لقوله صلى الله عليه وسلم " الدين النصيحة .

قلنا : لمن يارسول الله ؟ قال — صلى الله عليه وسلم

* لله عز وجل

* ولكتابه

* ولرسوله صلى الله عليه وسلم * ولأئمة المسلمين وعامتهم (٣)

---

(١) سورة النمل الآيه ١٢٥
(٢) مختصر الزبيدى ص ١١٩
(٣) صحيح مسلم جـ ١ ص ٥٥

ومثله جاء في قوله صلى الله عليه وسلم " من لا يهتم بأمـــر المسلمين فليس منهم ، ومن لم يمس ويصبح ناصحا لله ورسوله ،ولكتابه ولامامه ، ولعامة المسلمين فليس منهم (١) .

ولا شك أن ارشاد المسلمين لمصالحهم ، وتعليمهم أمور دينهم وتوجيههم في أمور دنياهم ، وستر عوراتهم ، وسد خلاتهـــم ونصرتهم على اعدائهم ، والدفاع عن أعراضهم وأموالهم ،وابعـــاد الغل والحقد والحسد عنهم ، مما أمر به الشرع الشريف ، فمـــن خالفه فقد عصى الله ورسوله .

لذا سأبذل الجهد في بيان الفكر الصوفي من خلال القضايـــا الرئيسية التي هي رصيدهم الفكري ، ولن يكون لي من غـــرض الا البحث الموضوعي المجرد ، راجيا ايضاح ما أراه غامضا ، وشـــرح ما يمكن أن يكون مجملا ، اذ الحقيقة ضالة المؤمن ينشدها أنّـــى وجدها

---

(١) الإمام الهيثمي — مجمع الزوائد جـ ١ ص ٨٧ عن حذيفـــة ابن اليمان رضي الله عنه .

الفصل الثالث

((الولـــى فـــى الفكـــر الاســـلامى))

(المبحث الأول)

((الولـى فى المدلول اللغـــــــوى))

للولى فى الفكر الصوفى منزلة كبيرة ، بل هو الباب الذى يدخل منه الصوفى الى عالم الكرامات ، ويلجه حتى تتحقق له المسائل المهمات ، كما أن الولاية دليل الاستقامة ،وباعث الألفة ، وعلامة الثبوت ،ودواعى الثبات ، فلا يراعى فى الولى الا الاستقامة على ما ثبت بالادلة الصحيحة [1] ، وبالتالى هناك علاقة بين الولى والولاية .

وكيف لا وما الولى الا " عبد كاشفه الله تعالى بما شاء من غيبه [2] " وأطلعه على ما أراد من أسرار لا يعلمها الا هو سبحانه وتعالى ، وحينئذ لا يُخشى عليه ، ولا يُخاف ،لأن من كان بالله أعرف ، كان من الله أخوف ، فمن عرّفه الله نفسه اشتدت مهابته وتعظيمه لله سبحانه وتعالى ، وتلك الهيبة من معروفه تزيد على أضعاف من مخافات الخائفين [3] .

ثم ان الله تعالى ذكر فى قرآنه الكريم أنه مولى المومنين قال تعالى " ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ [4] " كما ذكر

(١) شيخ الاسلام زكريا الانصارى هامش الرسالة القشرية ص ٢٠١ صبيح

(٢) شيخ الاسلام العزبن عبد السلام — زبدة خلاصة التصوف المسمى بحل الرموز ص ١٠٠

(٣) المصدر نفسه ص ١٠١ تحقيق طه عبد الرءوف سعد مكتبة العلم والايمان بطنطا

(٤) سورة محمد الآية ١١

سبحانه وتعالى أن " اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١) .

وتكررت عنايته تعالى بأوليائه فى الدنيا والآخرة ، وبيان أن هذه الولاية ذات جانبين أحدهما : من قِبَل الله تعالى " اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا "

ثانيهما : مِن قِبَل العبد الصالح " إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (٢) .

من ثم جاءت النتائج مرتبة على مقدماتها ، وأن أولياء الله فى مأمن من كيد المخلوقين ، وان وقع لهم ما يسيء فما ذلك الا ظاهر القول ، أما الباطن فهم فى فرح وسرور ، وهناء وحبور ، قال تعالى " أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٣) .

على أن الولى لا يصل تلك الدرجة الا بالمجاهدة الشديدة ، التى يسبقها صادق الايمان وصحيح الاسلام حتى يتجاوز كافة العقبات

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٧
(٢) سورة الاعراف الآية ١٩٦
(٣) سورة يونس الآيتان ٦٢ ، ٦٣

التى تقف طريق البلوغ لتلك المرتبة ، اذ كيف يكون وليا ولم يختبر ، أو كيف يكون وليا ولم يفطم جوارحه عن المخالفات الشرعية ، فطاما لا يقف عند حد القول أو الفعل ، وانما يتجاوزها الى حد القبول والرضا والتسليم .

كما أن منزلة الولى تقصر عنها مراتب الكثيرين ويكفى أنه متى بلغ درجة القربات فاضت عليه الاسرار ، من ثم فلا يبلغ درجة القربات حتى تفيض عليه الاسرار وتتجلى له الأنوار ، ولا يقف على تلك الحال الا بعد أن يتجاوز عقبات ست كل منها يحصل له بها أمر مهم :

الأولى : فطم الجوارح عن المخالفات الشرعية ، وبالتالى يحصل له التعرف على ينابيع الحكم القلبية ، وهو أول المجاهدة التى هى " حمل النفس على المشاق البدنية ، ومخالفة الهوى على كل حال "(1) .

الثانية : فطم النفس عن المألوفات العادية ، وحينئذ يتمكن من الاطلاع على أسرار العلوم اللدنية ، وهى التى لا تحتاج الى بذل مجهود فكرى فى تحصيلها ، أو ضرورى فى الوصول إليها ، انما هى معارف الهية مباشرة تفيض على قلب العبد فضلا من الله تعالى ،

---

(1) الامام الجرجانى — التعريفات ص ٢٣٩ ط الحلبى

كالتى كانت لدى العبد الصالح الذى علم موسى الكليم صلى الله عليه وسلم — قال تعالى " فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا "(١)

__الثالثة__ : فطم القلب عن الرهونات البشرية ، وحينئذ يتمكن — بفضل الله — من بلوغ أعلام المناجاة الملكوتية ، وكلما انقطع القلب عن تلك استقل به الواحد الأعظم جل علاه ، فيسمع ويرى بالأنوار الالهية ما شاء الله له أن يرى ويسمع .

__الرابع__ : فطم السر عن الكدورات الطبيعية ، وبالتالى تلمع له أنوار أعلام المنازلات القربية ، وكلما غابت عنه الكدورات الطبيعية ارتقى الى أعلام المنازل القربية ، وكيف لا والله تعالى قال فى قرآنه الكريم " وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ "(٢)

__الخامسة__ : فطم الروح عن التجارات الحسية ، حتى يتمكن العبد من الوصول الى أقمار المشاهدات الجسية .

---

(١) سورة الكهف الآية ٦٥

(٢) سورة البقرة الآية ١٨٦

السادسة : قطع العقل عن الخيالات الوهمية حتى يهبط على رياض الحضرة القدسية ، وبالتالي يغيب العبد بما يشاهد من اللطائف الانسية عن الكثائف الحسية (١) ، وهو الولى الذى بلغ تلك القربات ونال تلك الدرجات .

من ثمّ فإن الولاية والولى من الأمور الهامة فى الفكر الصوفى ، وبالتالى فلابد من التعريف بكل منهما فى اللغة والاصطلاح ، مع ذكر نماذج تطبيقية ، لأن الفكرة ما لم تدعمها وقائع ، فهى نظرية ، ولنبدأ بتعريف الولى أولا فى اللغة والاصطلاح ، ثم الولاية كذلك .

أولا : الولى

أ ـ فى اللغة

وردت مادة ولىٌ فى اللغة على انحاء شتى منها :

١ ـ القرب الشديد .

ومنه قولهم : تباعد بعد وَلْيٍ ، ومعناه تباعد بعد أن كان شديد القرب (٢) ، وعلى هذا فالولى هو شديد القرب

---

(١) شيخ الاسلام عبد العزيز بن عبد السلام بن أبى القاسم سلطان العلماء المعروف بالعز بن عبد السلام ـ ٥٧٧ هـ ١١٨١م — ت ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢م كتاب زبد خلاصة التصوف ص ١٩ بتصرف يسير

(٢) مختار الصحاح باب الواو فصل اللام وما يثالثهما ص ٧٦٢

من تعليمات الله ، الموالى بينهما ، حتى كانت موالاته بين طاعات ربـه هـى الشاغل الأول له ، فصار وليا لله ، والله سبحانه وتعالى وليه ،

٢ــ الملك والامارة والتسلط :

ومنه قولهم : "ولِيَ" الشيء ولاية بمعنى ملك أمره ، وقام بـه ، فصار متسلطا عليه ، تسلط عناية ورعاية وعلى هذا فالولى هـو القاهر غرائزه ، المالك رغباته ، المتسلط عليها ، فلا تقوده إلى المعاصى ، انما يتوجه هو بها الى الطاعات ولكثرة ما والى ربه بطاعاته ،والاه الله بكراماته ، فصار وليا لله .

٣ــ المحبـة :

ومنه قولهم فلان والى فلانا بمعنى أحبه الحب الشديد ، حتى لم يعد يطيق الصبر على تغيبه عنه،والولى هو المحـب لربه ، المتعلق به ، فيرى فى طاعة الله مظهرا من مظاهـر الحب ، ومن شدة ما توالى على قلبه هذا الحب ، لم يعـد فى قلبه الا من أحب ، وهو الله رب العالمين فصار لله وليا .

٤ــ الادبار والبعد والاعراض :

ومنه قولهم : ولت الفاكهة اذا أنتهى موسمها وأدبرت،وولى الهارب بمعنى ادبر حتى لا يقع فى العدالة فتقام عليه كلمة

العدل ، وهو لا يرتضيها فيهرب منها ويولى القوم إدبارا عنهم وهربا منهم (١) .

اذن الولى هو المدبر عن المعاصى ، المتباعد عنها ، لأنه يرى فى المعاصى طاعة للشيطان ، ومخالفة للرحمن وهو مأخوذ من اعماقه لرضوان ربه ، متعلق بمحبته ، لا سلطان للشيطان على قلبه ، قد تحققت لله عبوديته فكانت حاجزا بينه وبين معاصى الله ، وانغلقت منافذ الشيطان اليه .

وكيف لا .. والله عز وجل قال فى قرآنه الكريم " إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٢) . لقد تحقق ولى الله بسمات التواضع والحب فى الاله حب لذاته ، حب لأوامره ، حب لما أمر الله بحبه ، بحيث يشمل العبد من كل نواحيه .

من ثم قال ربنا فى الحديث القدسى " من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب (٣) " وقال ربنا فى القرآن الكريم " إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ (٤)

---

(١) المعجم الوجيز مادة ولى ص ٦٨٢

(٢) سورة الحجر الآيتان ٤٢ ، ٤٣

(٣) الاتحافات السنية فى الأحاديث القدسية باب الميم

(٤) سورة الانفال الآية ٣٤

وقال تعالى " ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا "[١] وقال تعالى " وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ "[٢] وقال تعالى " وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّالِحِينَ "[٣] ، وقال تعالى " وَكَفَى بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِٱللَّهِ نَصِيرًا "[٤]

كما أن الولى فى اللغة يشمل نوعين :

النوع الاول : ولى الله ، الذى يوالى الله بالطاعات ، ويواليه الله بالكرامات ، وألوان الخيرات " ومن أجلّ الكرامات التى تكون للأولياء التوفيق للطاعات ، والعصمة عن المعاصى والمخالفات[٥] .

النوع الثانى : ولى الشيطان ، وهو الذى يتولاه شيطانه ، فلا يأمره الا بشر ، ولا يدفعه الا للمعاصى ، حتى إنه لكثرة ما والى بين المعاصى واطاع الشيطان ، صار الشيطان وليه ومولاه ، وأصبح هو وليا للشيطان وعبدا له ، وخادما من خدمه ، وصورة من الاعيبه ، قال تعالى " وَإِنَّ ٱلشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَمُشْرِكُونَ "

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٧

(٢) سورة آل عمران الآية ٦٨

(٣) سورة الاعراف ١٩٦

(٤) سورة النساء الآية ٤٤

(٥) شيخ الاسلام العز بن عبد السلام — زبد خلاصة التصوف ص ١٠٢

على ان هذا المنتج اللغوى توجد فواصل بين أجزائه ، بحيث ينصرف بعضه الدال على الخير ، القائم على الحب لله ، الى الولى لله ، كما ينصرف الدال على الشر ، القائم على المعاصى ، الى ولى الشيطان ، قال تعالى " وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ، وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ، حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ "(١)

بيد أن المهم هو بيان الولى على الناحية التى يعنى بها الصوفية وهى أن الولى لله من توالت طاعاته لله من غير أن يتخللها عصيان أبدا ، فيتوالى عليه احسان الله وأفضاله(٢) ، ولا تنقطع عنه أبدا .

أما ولى الشيطان الذى توالت معاصيه لله وطاعاته للشيطان فليس بمقصود للصوفية وهم لا يريدونه أبداً ، ولا يفكرون فيه ، أنه لا يجول بخواطرهم لأنه مصدر الكدر ، وصورة الضلال ، وباب المعاصى ، والعدو لله والذى لا يتوقف عن الكيد والأضلال ، ومن ثم فهم لا يتعاملون معه ، سواء على صورة الآدمى الذى يسخره لتلك المعاصى ، أو على صورة الشر التى ينطلق منها ، وتعتبر فى كل حالاتها مظهرا له أو صورة من صوره .

(١) سورة الزخرف الايات ٣٦ / ٣٨
(٢) التعريفات ص ٢٢٧ باب الواو

كما أن الولى للشيطان لا يخلو أمره من مواظبة على المعاصى بأنواعها فهو مع الكفرة سائر ، وفى الفسق منغمس ، مع الشيطان فى ود وألفة .

وفى تيار المعاصى يعيش يترقب ولهفة ، كما أنه عند قرنائه أعظم جليس ، وأفضل أنيس .

ذلك بأنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون ، فعداوتهم لله ، وموالاتهم للشيطان متوازيان ، كلما كانت العداوة لله ، فانه يقابلها الطاعة والموالاة للشيطان ولا يعرف الصوفية هؤلاء أبدا .

كما أن الصوفية يعرفون أولياء الله ويتواصلون معهم ويحاولون اقتفاء آثارهم ، أما أولياء الشيطان فلا اعتداد بهم ، ولا ذكر ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا أن الكافرين لا مولى لهم . "

(المبحث الثاني)

((الولي في فكر الصوفية))

الصوفية من أكثر الذين تحدثوا عن الولي ، والولاية باعتبارهما من الرصيد الفكري والروحي عندهم ، بل ومن مصطلحاتهم التي يقومون عليها ، ويعنون بها ، كما أن البعض يخص وقوعها لأفراد منهم ، فمن هو الولي عندهم ؟

الجواب : أن الولي هو من أفاض الله عليه من نور اسمه تعالى " الولي " فتولاه بهدايته ، واختصه بمحبته ، فأحب الله وآثره عن سواه ، فقلبه ينبض بحب الله ، وروحه وكيانه ومشاعره في حنين دائم وشوق جارف الى القرب من مولاه ، ولسانه لا يفتر عن ذكره وتسبيحه (١)

وربما كانت كلمة أفاض الله عليه غير مطروحة لدى غير الصوفية ، ومطروقة لكنها ليست على هذا المعنى الذي يراه عند الصوفية ، وبخاصة صوفية القرون التي لم تكن المصطلحات الفنية قد دخلت الى الفكر الصوفي لكن ليس معنى هذا أن صوفية القرون الأول والثاني والثالث ، لم يكونوا على علم بمعنى الولي ، وانما المقصود أنهم لم يكونوا يقصدون المفردات الفنية التي دخلت بيئتهم الفكرية من أمثال الفيض ، والصدور ، وقد

(١) الشيخ / محمد محمود عبد العليم — الولاية ص ٣ شركة الشمرلي ط ١٩٩٢ الأولى .

دخلت متأخرة بعد ترجمة الفكر اليونانى الى البيئة الاسلامية ، كما أنهم لم يستعملوها على المعنى الذى قصده اليونانى .

لذا رأينا الجرجانى يعرف الولى بعدة تعريفات منها : أنه* من توالت طاعته لله من غير أن يتخللها عصيان ، ومن توالى عليه احسان الله وأفضاله (٢) وهذا التعريف نظر فيه الى جانب العمل وممارسته ، وكونه فى حدود الطاعة الانسانية التى تقع لها الاحسانات الالهية.

٢ــ الولى " هو العارف بالله وصفاته بحسب ما يُمكِّنُ المواظب على الطاعات ، المجتنب عن المعاصى ، المعرض عن الانهماك فى اللذات والشهوات (٢) .

والتعريف الثانى : ملاحظ فيه احالة الولى فى معارفه كلها على ما يمكّنه الله سبحانه وتعالى فيه من مواظبة على الطاعات واجتناب عن المعاصى والمنهيات ، والاعراض عن الوقوع فى لذات جسديـة ، أو شهوات يقاد المرء اليها ويكون سعيه اليها سعى الطامع فيها ، والراغب ما بأعماقهـا .

---

(١) السيد الشريف الجرجانى ـ التعريفات ص ٢٢٧
(٢) المصدر نفسه ص ٢٢٧ باب الواو

من ثم بان لنا أن الولى لا يكتسب معارفه كلها ، وانما يكتسب بعضها ، ويفيض عليه باقيها ، انه يتعرف على جزئياتها المطروحة كنواح معرفية ، لكن معرفتها على حقيقتها الذاتية مما يتمكن المرء به عن طريق شيء آخر ، انه المعرفة بالله وصفاته ، بحيث يتهيأ لباقى المعارف اللاحقة للمعرفة الالهية ، وتكون باقى المعارف مستقاة من النور الأول ، فلا يقف الولى من الأمور العادية موقف المتواكل الذى يلقى صفة شرحاله على ما فى الغيب ، وانما يأخذ بالأسباب ، فيقف بطاعاته تعالى على حد المواظبة ، وعلى المعاصى عند حد المخاصمة وعلى شئون الحياة ، فى دائرة الأخذ بالاسباب ، وهنا يقع له التكمل بالآداب الشرعية .

رأى الامام القشيرى : (١)

الامام القشيرى له عند الصوفية ، يد طولى ، وقدم ثابتة ، ودعوة مستجابة ، وكرامات أدناها فيوضات الهية ، غلبت كافة أغراضه الدنيوية ثم طبعت أعماقه من داخلها بالنور الربانى ، ولذا فهو بحر من بحور العلم ، وفيض من فيوضات النور فما رأيه فى الولى ؟

---

(١) الامام ابو القاسم عبد الكريم بن هوزان القشيرى كان جامعا بين الحقيقة والشريعة لما لها بهما ، وهو من شيوخ الصوفية الأعلام وله العديد من المؤلفات ٣٧٦ — ٤٦٥ ه وله بنيسا بورقبر يزار

أولا : تعريفه للولى :

يرى رحمه الله — أن الولى وصف تحققت فيه المبالغة ، فهو لكثرة ما توالت طاعاته لله ، حتى لم يعد بالامكان أن تقع له معصية مرادة منه ، وصف بأنه ولى ، وعلى هذا فالولى معناه " من توالت طاعته - لله — من غير تخلل معصية (١) وهذا المعنى قائم على جهد الموصوف بأنه ولى ، وملاحظ فيه الجانب الالتزامى السلوكى من العبد نفسه ، على معنى أن الولى هو الموالى لله رب العالمين .

ثم قرر — رحمه الله — ان الولى وصف لا بمعنى الفاعل كالسابق ، وانما على معنى المفعول ، حيث لوحظ فيه أن هذا الجانب من الوصف قائم على موالاة الله للعبد ، وهو الجانب الثانى من الموالاة ، لأن — العبد والى الله بالطاعة ، فوالاه الله بالحفظ والحراسة ، والعناية ، وبالتالى عرف الولى بأنه : " الذى يتولى الحق سبحانه وتعالى حفظه ، وحراسته ، على الادامة والتوالى فلا يخلق له الخذلان الذى هو قدرة على العصيان ، وانما يديم توفيقه الذى هو قدرة الطاعة (٢)

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٢٧٦ وبها مشها هوامش من شرح شيخ الاسلام زكريا الانصارى رحمه الله — مطبعة صبيح بالقاهرة .

(٢) المصدر السابق ص ٢٧٦

ثم يستشهد بقوله تعالى "وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ" (١)

ولأن القشيرى صاحب رؤية واضحة ، وثقافة واسعة ، فقد عرض للولى صفاته ، مما يجدر بنا أن نعرضها فربما كانت فيها اجابات لبعض ما يرد على الخاطر من تساؤلات ، فما هى صفات الولى عنده ؟

ثانيا : صفات الولى عنده :

ذكر الشيخ للولى عدة صفات منها :

١ ــ جواز وقوع الكرامات له ، أما لماذا ؟ فلأنه يرى جواز وقوع الكرامات فعلا كما لا يوجد ما يمنعها عقلا ، كما أنه لا يؤدى حصول الكرامات الى رفع أصل من أصول الدين ، باعتبار أن هذه الاشياء كلها من مقدورات الله سبحانه وتعالى ، وأنه جل وعلا الذى يجريها على الولى ، حتى تكون من أدلة الصدق عليه ، ولا يشترط أن تكون كونية ، انما يمكن أن تكون كونية ، كما يمكن أن تكون فى المعارف والعلوم ، أو فى الأحوال والظروف ، من ستر حال ، وكشف كرب ، وتفريج هم .

---

(١) سورة الأعراف الآية رقم ١٩٦
وتمامها " ان ولى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين " .

لذا اشترط فى الكونية أن تكون فعلا ناقضا للعادة ، فى أيام التكليف ، ظاهرا على موصوف بالولاية ، فى معنى تصديقه فى حاله (١)

ولو أن الامام القشيرى خص الكونيات مع الولى لله بما يكون من قبيل التمكين للولى ، ورفع شأنه ، ربما كان فيه جانب من القبول ، لكنه لما أطلق فقد سمح لنا بالتأكيد على أن حصر الكرامة فى الكونيات ليس رأى جمهور الصوفية ، وانما هو رأى قد يقبل أو يرد ، كما أنه ليس من اللازم ظهور كرامات كونية على يد الولى ، فان هذا الباب قد يدخل منه أصحاب الدعوات الخبيثة ، وأصدقاء القرناء .

وكم أنبأت حوادث الدهر عن أصحاب النوايا السيئة ، والطوايا السوداء ، أنهم دخلوا هذا الباب حيث أوهموا الناس بأنهم أولياء ، فأكلوا الثعابين ، وأرقصوا الحبال ، واستخدموا الخدع والحيل ، حتى انطلت على العامة ألاعيبهم ، وأدخلهم السذج فى زمرة الاولياء ، وما هم الا شياطين مردة ، أجادوا فن السحر ، وألاعيب السيرك فأكلوا الحيات ، وقفزوا فى وسط النيران ، ظانين انهم أوهموا غيرهم ، أو لعبوا عليهم من خلف ظهورهم .

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٢٧٤

والفرق بين كرامة اولياء الله الربانية وبين الأحوال الشيطانية — كبير جدا — لأن ما يظهر فى سلوك العبد وحاله ، ان كان من ذوى الايمان والتقوى المتمسكين بشريعة الله ظاهرا وباطنا ، فما يجرى على يديه من خارق فهو كرامة من الله تعالى له .

وان كان من ذوى الخبث والشر والبعد عن التقوى المنغمسين فى ضروب المعاصى المتوغلين فى الكفر والفساد ، فما يجرى على يديه من خارق انما هو من جنس الاستدراج ، أو من خدمة اوليائه من الشياطين له ، او مساعدتهم اياه (١) والفرق بين أولياء الله وأولياء الشيطان كبير جدا لمن تدبره .

لذا بلغت الحيطة لدى الصوفية ، ونال التحفظ منهم منالا ، فلم يشترطوا ضرورة وقوع كرامات كونية خشية الالتباس ، وانما ذكروا العديد من الكرامات ، وكلها مما يقبله العقل ولا يرده ، وتوجد له أسانيد شرعية ، ووقائع ثابتة ، ولا يقع فيها التباس .

---

(١) الاستاذ / أبو بكر الجزائرى — منهاج المسلم — كتاب عقائد وآداب وأخلاق وعبادات ومعاملات ط ٨ ص ٥٩ — مكتبة المعارف الحديثة ١٣٧٦ هـ

وقد اصلح الشيخ رأيه فعدل فيه حتى انه ذكر - فيما بعد - أنه " لو لم يكن للولى كرامة ظاهرة - كونية - عليه فى الدنيا ، لم يقدح عدمها فى كونه وليا (١) " والذى عليه جمهور معتدلى الصوفية أنه " قد يكون من لم تظهر له كرامة كونية أفضل ممن ظهرت له كرامات ، لأن - الأفضلية انما بزيادة اليقين ، لا بظهور الكرامة (٢) الكونية ، لأنها أخص والولاية أعم ، فلا يحكم بالاعم لمجرد ثبوت الأخص .

٢- تعدد الكرامات له :

فكما تكون الكرامة أمرا كونيا ، فكذلك يصح أن تقع أمرا غير كونى ، ولهذا صور عديدة وكلها غير مألوفة للناس المعايشين لهم ، لأنها لو كانت أمرا مألوفا ما كانت خارقا للعادة ، ولا ناقضا لمألوف الناس ، ولو كانت فى الكونيات فقط لكانت منحصرة ، ولا يعرف عند أهل العلم - حصر لكرامات الأولياء التى منها :

أ - اجابة الدعوة :

لا شك أن استجابة الدعاء أخبر بها رب العالمين قال

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٢٧٥
(٢) الشيخ زكريا الانصارى - هوامش على الرسالة القشيرية ص ٢٧٥

تعالى "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ" ومثل هذه الاجابة تتحقق كنوع من الكرامات التى لا تكون الا لولى الله ، المديم على طاعته جل علاه .

بيد أن اجابة الدعاء قد تكون رفعا لظلم ، أو دفعا لظالم ، وآية ذلك ان سيدنا سعيد بن زيد اغتصبت امرأة جزءاً من أرضه حيث اعتصمت المرأة بالسلطة ، وتعاون برجال الحكم مستغلة تغييرا فى الأوضاع التى كانت سائدة لصالح فريق على الآخر ، من ثم ادعت ملكيتها جزءاً من أرضه ، وفعلا اقتطع هذا الجزء من أرض سعيد بن زيد لصالح تلك المرأة .

راح المظلوم يدعو على ظالمه ، فقال اللهم ان كانت ظالمة اجعل قبرها فيها ، وفعلا حفرت المرأة فى تلك الأرض المغتصبة بئرا تستغله فى رى تلك الأرض ، وظلت دعوة الرجل الصالح تطارد المرأة الظالمة حتى كف بصرها فراحت تنادى اصابتنى دعوة بن زيد ، ولم تقف عند حد النداء وانما طفقت تسرح وتتجول فى الجزء الذى اغتصبته كأنها تستجمع بقايا بأسها المفقود ، أو يأسها الدائم .

وبينما هى تمر بجوار تلك الحائط اذ تزل رجلاها فى البئر فتقع فيه وتموت ولو كان ابن زيد ظالما ما قبل الله دعوته ، ولما كانت النهايه الأليمة لتلك المرأة من خواتيم السوء التى تربصت بها الدوائر وهتفت حولها من كل جانب ، فكانت اجابة الله دعوته من دلائل ولايته .

روى الامام البيهقى أن خبيب بن عدى حين أسره المشركون وقد كان فى سرية يكتشف أمر المشركين فاذا به يقع فى أسر المشركين فما كان منهم الا أن صلبوه وبنبالهم قتلوه ، وبرماحهم أذوه ،وهو فى هذه الحال رفع أكف الضراعة الى الله ثم قال :

" اللهم احصيهم عددا ، واقتلهم بددا ، ولا تبق منهم احدا "

فلم يحل الحول ومنهم أحد غير رجل لبد بالأرض حينما رأى خبيبا يدعو ، فاستجاب الله لدعاء خبيب ،ولم يبق أحد من قاتليه ، وكانت نهايتهم سريعة وقاسية ، ولو لم يكن الرجل وليا ما استجاب الله دعاءه (١)

---

(١) الامام البيهقى — الاعتقاد على مذهب السلف ص ١٧٥ — ١٧٦ دار الكتب العلميه — بيروت .

وكما تكون اجابة الدعاء فى دفع الظالم ، فكذلك تكون فى تحقيق مصلحة قائمة ، أو منفعة مقبلة من ذلك ما روى أن سيدنا أنس بن مالك ، خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد ذهب الى أرضه فاذ ها تحتاج الرى ، ولا يجد انس ماء يرويها به .

فرفع يديه الى السماء وقال : اللهم رب السماوات السبع ، خالق السحاب ، منزل الماء ، اسق أرض أنس ، ثم انصرف عائدا الى داره ، وقال لابنه اذهب الى الأرض فانظر ما تم فيها ، فما أن وصل الابن الى قريب من الأرض فاذا به يبصر السماء تمطر على أرض أنس ، كأن المطر يُصب فوقها قطرا ، حتى رويت أرض أنس ، ولم تتجاوز الماء حد أرضه .

لذا فان الصوفية يعرفون هذه الاجابات المبكرة ، والاستجابات التى تجرى على أولياء الله لأن ولى الله لن يدعو الا بخير ، ولن يستجير الا بالله رب العالمين ، فهو الذى يعلم السر وأخفى ، وهو القريب الذى يجيب ، والمالك المستجيب ، فتبارك الله رب العالمين .

ب ــ اظهار طعام فى غير أوانه من غير سبب ظاهر ، كالحال مع مريم رضى الله عنها .

جـ — حصول ماء فى زمان عطش من غير مصدر معروف .

د — تسهيل قطع المسافة الطويلة فى مدة قصيرة من غير وسيلة ظاهرة .

هـ — التخلص من عدو له سلطة ، أو تخليص من ذى سلطان جائر

و — سماع خطاب من هاتف قلبى والهام داخلى ، يعقبه تصرف سليم موافق للشرع مخالف لما اعتاد الناس فى أسبابهم العادية .

ن — غير ذلك من الصور والأغراض التى ترد عليها كرامات أولياء الله تعالى والتى لا تقع الا لهم ولا تتعدد الأعلى أيديهم ، اكراما لهم ، وبيانا لمنزلتهم عند رب العالمين ، وهو من البشريات التى تقع لهم فى دار الدنيا ، اعلاء لأقدارهم ، وكشفا لمواقفهم ، وتلك لا تعرف الا لدى الاولياء لله رب العالمين ، وذلك لا يستغرب من أولياء الله الذين يكررون " أنت مع الاكوان ما لم تشهد المكوّن فاذا شهدت المكوّن كانت الاكوان معك (٢) وتحققت الكرامات لك .

---

(١) الامام ابن عجيبة — الفهرسة ص ٢٣ — تحقيق د / عبد الحميد صالح حمدان ط اولى ١٩٩٠ — دار الفكر العربى بمصر .

(٢) الامام القشيرى — الرسالة القشيرية ص ٣٧٦ .

ثالثا : ادامة التوفيق للطاعة ، والبعد عن المعاصي والمخالفات .

الولى يتولاه الله برعايته ، وعنايته ،فيسبغ عليه ألوان القبول ، ويجعل له بين الناس قبولا آخر ،ثم يفيض عليه جل علاه من فيوضاته وحينئذ يتجه في قلبه أصداء هذه الفيوضات ،فيندفع الى التعلق بمنابعها حتى مكانه مشدود اليها ، وذلك من دوام توفيق الله للولى حتى يستمر على الطاعة أبدا .

ومن ثم ، لا يجرى له الخذلان ، ولا يقترب هو من أفانين العصيان " وانما يديم الله له توفيقه الذى هو قدرة على الطاعة ، قال تعالى : ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ (١) وليس معنى هذا أنه معصوم كالحال مع الانبياء وانما هو محفوظ عنها — المعاصي — فلا يصر على فعلها ، وان حصل منه وقوع فيها لنسيان أو غفلة فانه يستغفر الله مسرعا ويتوب مقلعا ، ولا يعود اليها راغبا .

والمعروف لدى محقق اهل العلم أنه " ليس من شرط الولى ظهور خوارق العادات — الكونية — المسماة عرفا بالكرامة على يديه ،فليس عند أهل التحقيق كرامة أجل من صدق التمسك بالكتاب والسنة ، وصحة المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصحبه الراشدين (١) لقوله

(١) الاستاذ / كمال أحمد عون — أولياء الله بين الموالين والجافين ص١٠ ط المجمع البحوث الاسلاميه سنة ١٩٧١ .

صلى الله عليه وسلم " عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى ، عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فان كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار "(١) .

من ثم — فان الولي دائما على جناح التوفيق يطير ، وعلى متن الطاعة يسير ، وعن المعاصي والمخالفات حصير ، ومن أجل مظاهر مظاهر التوفيق ارادة الخير والاقبال عليه ، وازدراء الشر والابتعاد عنه مع فيض علمي ، وفتح أخلاقي ، وكشف رباني ، حتى يرى الخافيات عيانا ، والغائبات مشاهدات ، ولا يكون ذلك الا لولي الله رب العالمين .

رابعاً : بلوغه اليقين

الولي يبلغ اليقين القلبي والنفسي والعقلي بكل درجاته ، والمعروف أن اليقين درجات ثلاث :

الدرجة الاولى : علم اليقين ، وهو قبول ما ظهر من الحق ، وما غاب للحق ، والوقوف على ما قام بالحق ، وهذه الدرجة — علم اليقين يندرج تحتها مسائل :

أ — قبول ما ظهر من الحق تعالى ، وهي أوامره ونواهيه وشرعه ودينه ، الذي ظهر للناس على ألسنة رسله فيتم تلقيه بالقبول

(١) الحديث مشهور ، وله صيغ كثيرة .

والانقياد ، والاذعان والتسليم للربوبية ، والدخول تحت رق العبودية ، وتلك مما يبذل جهده فيه الولي لله (١) .

ب — قبول ما غاب للحق ، وهو الايمان بالغيب الذى أخبر به الحق سبحانه وتعالى على ألسنة رسله من أمور المعاد وما يتعلق به والجنة والنار ، والصراط والميزان والحساب ، وما قبل ذلك من تشقق السماء وانفطارها وتهاوى الكواكب وانتثارها ونسف الجبال ، وطى العالم ، والبرزخ نعيمه وعذابه ، فقبول هذا كله ايمانا وتصديقا وايقانا هو اليقين .

جـ — الوقوف على ما قام بالحق سبحانه من أسمائه ، وصفاته ، وافعاله وهو علم التوحيد الذى اساسه اثبات الأسماء والصفات ، وضده التعطيل والنفى والتجهم ، فهذا التوحيد يقابله التعطيل (٢)

والولى لله قد بلغ درجة علم اليقين ، ومن المعروف العلوم أن علم اليقين غير عين اليقين ، اما لماذا ؟ ... فلما يلى :

(١) علم اليقين هو ، ما أعطاه الدليل بتصور الأمور على ما هو عليه — التعريفات ص ١٣٦ .

(٢) شيخ الاسلام ، ابن قيم الجوزية — مدارج السالكين جـ ٢ ص ٤١٨ ط دار الحديث بالقاهرة

١ـ التسمية ـ فعلم اليقين هو : ما أعطاه الدليل بتصور الأمور على ما هو عليه .

اما عين اليقين فهو ما أعطته المشاهدة والكشف (١) ولا شك ان الدليل قد يكون عقليا كما يكون نقليا ، وقد يكون ضروريا كما يكون نظريا ، وهو الذى يجرى فيه علم اليقين ، أما المشاهدة الروحية والكشف الربانى فتلك مرتبة أعلى مما سبق ، وهى مرتبة عين اليقين .

كما يقرر الصوفية أن اليقين هو :

١ـ " رؤية العيان بقوة الايمان ، لا بالحجة والبرهان .

٢ـ " مشاهدة الغيوب بصفاء القلوب ، وملاحظة الأسرار بمكافحة الأفكار .

٣ـ " طمأنينة القلب على حقيقة الشىء .

٤ـ " رؤية العيان بنور الايمان (٢)

ولا نعد و الحقيقة ان قلنا بشمول اليقين عند الصوفية لتلك التعريفات وغيرها ، فانه يتسع لها جميعا بلا منازعة .

---

(١) التعريفات للجرجانى ص ١٤٠

(٢) التعريفات ص ٢٣١

اذن الولى يقف عند اليقين بدرجاته ، ويعمل على أن يتحقق بها كلها ، فإذا غلبه حاله على واحد منها ، أنكر وجود نفسه ، وهرع للوقوف مع نفسه يدلها على الصواب متمثلا الحديث الشريف ، « حاسبوا انفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم ».

خامسا : وقوفه بين دائرتى الخوف والأمان :

الولى لله يخاف من الله ، ولا يخاف من خلق الله ، لكن هذا الخوف ليس متعلقا بالولى على الناحية التى يخاف منها الناس ، أنه خوف من نوع خاص جدا ، أنه يخاف ان يحبط به عمله ، أويزل به قدمه ، أو ينغمس منه قلبه وهو المعروف لدى الصوفية — بخوف التبدل والمكر .

الولى لله لا يخاف حر النار فهى من خلق الله ولها عليها الذى هو عقاب الظالمين " والطغاة الكافرين ، ولأنها من خلق الله فهو لا يهابها ، ولا يضع لها فى ذاكرته حسبانا ، انه ان عذب فهو عدل الله ، وإن اثيب فذلك الفضل من الله ، وكل شئ يجرى فى ملكوت الله بأمر الله ، ولذا فهو فى مأمن من هذه الناحية ، ان الكائنات كلها لا تخيفه .

إنه يخاف ان يكون الجارى خارقا ، قد جئ به مكراً ، لذا قيل :

" هل يسقط الخوف عن الاولياء ؟

فكان الجواب : ان الغالب على الأكابر هو الخوف من التبدل والمكر وضربوا لذلك أمثلة منها : ما ذكر عن السرى السقطى رحمه الله أنه قال :

" لو أن واحداً دخل بستانا فيه أشجار كثيرة ، وعلى كل شجرة طير يقول له بلسان فصيح ، السلام عليكم يا ولى الله ، فلو لم يخف أنه مكر ، لكان ممكورا (١) لأن الاطمئنان الى هذه الناحية ربما دفع به الى التراخى أو حمله على التراجع ، أو بلغ به مبلغ التردد فى أداء الطاعات التى كانت منوطة به ، وهو لم يبلغ درجة الولى الا بأدائها والمحافظة عليها ، مع الدوام والترقى فى الأداء ، وربما كان من قبيل الامتحان له .

كما ان خرق العادة للولى ليس مما يجعله يطمئن فربما كان التبدل للعادة مكرا ، وربما كان تبدلا للقبول وما المانع أن يكون لمزيد ابتلاء فاذا أنس له فربما انسحب منه ، وماذا عليه لو أن دائرة المنح الالهية انقلبت عليه ، كما سلف لغيره ، ممن اطمأنوا الى صالح اعمالهم ، وظنوها رافعة أقدارهم ، فقعدوا عن العبادة وتوقفوا عن مضاعفة

(١) الرسالة القشيرية ص ٣٧٧ .

الجهد ، فكانت النتائج مذهلة ، حيث سقطوا في دائرة النسيان .

بيد أن الأمان الذي ينشده الولي ليس هو الأمان المعروف لدى غيره ، إذ الأمان أنواع منها :

١ـ المال — فهو امان من الفقر .

٢ـ العلم — امان من الجهل

٣ـ العصبة — امان من الهزيمة والانكسار .

٤ـ السلطان — امان من ضعاف النفوس

٥ـ الصحة — امان من الضعف والسكينة

٦ـ السلطة القوية — أمان من تصرفات اللصوص والجهوليين

٧ـ الصداقة — امان من الأمراض النفسية

٨ـ المهنة والاحترافة — امان من ذل الحاجة ، وقصد السؤال

وكلها أمان كذوب ، لا يدوم لها دوام ، ولا يبقى لها قرار في قلب الولي ابدا ، لانها مخلوقة ، وطبيعتها التبدل ، وظواهر الحياة المتقلبة من اكثر الشواهد على تبدلها ، بل وسرعة التقلب ، حتى قيل ان المؤمن لها كمن يخزن ماء في جوف غربال ، أو يشيد داره على أرض زلزال ، والولي لا يخافها ، ولا يأمنها .

يقول أحد الشعراء الصوفية ، وعلم من أعلامها المحدثين (١)

ان الموءمل فى الدنيا وزينتها
كمن بنى بيته فى أرض زلـــزال
ان الموءمل فى الدنيا وزينتها
كطالب الخير من أنياب أغوال
ان الموءمل فى الدنيا وزينتها
كخازن ماء فى جوف غربـــال
يامن لبست ثيابا من زخارفهـــا
عريت نفسك فيها ثوبها بالـــى (٢)

ان الولى أمانه فى جناب الله ، اطمئنانه فى عبادة الله ، راحته فى الالتجاء الى الله ، انه لا يرى سواه فلا اطالة العمر مما قدر اللـــه بمنجاة ، ولا الزوج الوديع ، أو الولد المطيع بدافع عنه شيئا من قضـــاء الله اذن أمانه مع الله ، واطمئنانه بالله ، فهو مع الله وبالله لســـان حاله يردد :

(١) هو فضيلة العارف بالله — الشيخ محمود احمد هاشم شيخ الطريقة الهاشمية ، حيث كان عالما ورعا ، وصوفيا كما كان لله وليا ، تميـــز شعره بالعذوبة والجزالة ، مع الرصانة والدقة ، وبخاصة المتعلـــق بالدينيات .

(٢) الشيخ / محمود احمد هاشم — ديوانه دينيات ص ٦٩ ط — المجلس الاعلى للشئون الاسلاميه بمصر — العدد — ٨٩ — ١٣٨٨/١٩٦٨م ط أول .

انى ما خشيت موتا ولكـن ∴ قد خشيت الذى تحتم بعده

ان وقت السؤال أحرج وقت ∴ فيه يدرى الفتى شقاه وسعده

انما القبر جنة أو جحيـم ∴ وعد ربى وليس يخلف وعـده (١)

ومن البين أن الولى لا يخاف الا من تبدل موقفه من الله ، أمـا لماذا ؟ فلأن الولى يسترشد برسول الله فى كل أحواله ، محققا قـول الله تعالى " لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُـو ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا . (٢)

وكيف لا يخاف الولى ممـن خاف منه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رفع أكف الضراعة الى الله ، راجيا أن تكون منزلته عنده سبحانـه وتعالى كما هى ، والا يكون أذى المشركين له صلى الله عليه وسلم نوعا من الابتلاء أو واحدة من صور العتب الالهى .

من ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج الى الطائف يدعـو أهلها لدين الله (٣) فما كان منهم الا أن واجهوه بالعداوة والايذاء والسخرية ، بل انهم اغروا به السفهاء والنساء والغلمان حتى وقفوا لـه

(١) الشيخ / محمود احمد هاشم — ديوانه — الهاشميات ص ١٥ ط ٢ — القصيده بعنوان " قضاء الله " طبعه على نفقته الحاج / عبد الرحمن طه حجاج — نائب الطريقه عن مركز بنها .

(٢) سورة الأحزاب الايه ٢١

(٣) كان ذهابه صلى الله عليه وسلم الى الطائف حيث ديار ثقيف ، فربما وجد منهم اذانا مفتوحه ، او عقولا واعيه ، وكان ذلك كله بعد وفاة عمه ابى طالب وزوجه خديجه رضى الله عنها .

فى صفين فى طريق خروجه .

فلما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الصفين ، جعل لا يرفع رجليه ، ولا يضعهما ، الا رضخوهما بالحجارة ، حتى ادموا عقبه الشريف الطاهر ، بل كان اذا نالت منه الحجارة يقعد على الأرض — يتفادى الامها ، ويخفف من حدة تأثيرها على جسده الشريف الطاهر

فاذا قعد على الأرض يأتيه نفر منهم فيأخذون بعضديه ويقيمونه ، حتى اذا مشى رجموه وهم يضحكون ، وكان معه غلامه زيد بن حارثة ، وكلما رأى ما فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم حاول ان يقيه بنفسه ، حتى شجت رأس زيد أكثر من شج (١) .

ومع هذا كان دعاؤه صلى الله عليه وسلم " اللهم انى اشكو اليك ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس .

يا أرحم الراحمين — انت رب المستضعفين وانت ربى الى من تكلنى ؟

الى بعيد يتجهمنى ؟

ام الى عدو ملكته امرى ؟

ان لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى اوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا

(١) سبل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٥٧٧ — بتصرف يسير

و الآخرة ، من ان تُنزل بي غضبك ، او تُحِل عليّ سخطك ، لـك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة الا بك (١) .

وفوق ذلك كله لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يخاف سوى الا يكون غضب الله قد لحق به ، فيحل بعده السخط ، ما خاف أذى الناس ، ما خاف أن ينالوه بكل ما وسعهم من سوء ، أو الحاق الأذى به حتى في ادق الأزمات النفسية ، لم يقف رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو عليهم ، بل قال صلى الله عليه وسلم داعيا اليهم راجيا ان تحفهم رحمات الله .

حين ناداه -صلى الله عليه وسلم - ملك الجبال بأمر الله ، ثم قال : يا محمد: ان شئت أطبق الأخشبين ؟ فقال " صلى الله عليه وسلم "

" بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا " (٢) اذن الأولياء لا تغيب عنهم نصوص القرآن الكريم ولا تسقط من أعينهم السنة المطهرة ، نصوصا نقلية ، كما ان الرمز

---

(١) د / محمود محمد زيادة - العرب وظهور الاسلام ص ١٧٠ دار الطباعة المحمدية الأولى بالقاهرة سنة ١٩٧٢ م .

(٢) صحيح البخاري - كتاب بدء الخلق ، باب اذا قال احدكم آمين جـ ٦ ص ٣١٣ .

الذى سيظل مرفوعا هو النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى لم يخف الا من الله ، ولم يأمن لسلطان آخر سوى سلطان الله الذى بيده كل شىء .

حكى عن الشيخ أبى مدين الغوث ، انه اشتكى اليه رجل من وجود سبع يحاول القفز على حماره حين أراد ان يحرث ارضه ، لكن الرجل هرب بحماره ، اما هذه المرة فان السبع اخذ حماره واستقل به ، وهو جاثم على صدر الحمار الآن يأكله .

فذهب أبو مدين معه ، فوجد الحمار والسبع يأكله ، فأخذ أبو مدين باذن السبع ، وقال لصاحب الحمار : استعمله مكان حمارك ، فما فال صاحب الحمار يستخدم السبع حتى مات السبع ، ومثل هذا لا يستغرب من أولياء الله (١) كما لا يكون من الصعب جريانه لهم ، لان السبع حيوان مفترس وتلك طبيعته ، لكن ما المانع ان يتم استئناسه حتى يكون مع الولى أليفا ؟

الجواب : أن المانع هو فى الناظر الى السبع من حيث هو حيوان مفترس ، أما الناظر اليه باعتبار أنه مخلوق يتم التعديل فى طباعه

---

(١) الامام ابن عجيبة — الفهرسة ص ٢٢ ، ٢٣ — حققها د /عبد الحميد صالح .

والتهذيب في سلوكه ، بحيث يكون مع الولي أليفا ، ومع مدربه مستأنسا ، وكما أخافه مدربه حتى أجبره على التعديل في سلوكياته ، أليس من الممكن أن يجبره الولي بفضل الله - حتى يكون له ذلولا ؟ ان ذلك كله في علم الله قائم على سبيل الامكان والجواز للولي من باب الكرامة له ، وما ذلك على الله بعزيز .

مما سلف اتضح ان الولي له وجود في الفكر الصوفي ، وأن هذا الوجود للولي محدد بصفات معينة لا تخرجه عن كونه والى لله بطاعاته والتقرب اليه سبحانه وتعالى ، حتى والاه الله برحماته فجعل له بين الناس قبولا ، وفي قلوبهم محبة ، وفي وجه انهم أنسا وبهجة .

كما أنه سبحانه وتعالى تفضل على الولي بالبشريات ، وأسبغ عليه الكرامات ، وأفاض عليه الالهامات فصار يرى ما لا يراه غيره ويحب من يعجز عن حبه سواه ، ويجيب الله دعاءه ، ويحقق له رجاءه حتى كان الأولياء بحق هم أهل الله وخاصته ، وليس من المحتم أن نبحث عن الولي لدى كل الصوفية لأن ذلك مما يقوم به الاستقصاء أما نحن فانا نقدم نماذج ولسنا نقصد من تقديم الولي عند القشيري

أن نرفع قدره على غيره من الصوفيه ، انما الذى يعنينا هـــو أن القشيرى ممن لم يتأثر تراثهم بالتيارات الكثيره .

كما أن القشيرى محل اتفاق بين الدارسين للصوفيه على أنـــه من المؤرخين المعتدلين فى المسألة ، ومن ثم يكون رأيه مما ينـــال القبول سواء لدى الدارسين أو عند الصوفيه .

ومن المرجح أن القشيرى أو صوفية السلف كالقاضى عيـــاض والدارانى ، والفضيل بن عياض ، وغيرهم انما يمثلون حلقة متكاملـــة من الفكر الصوفى الذى يعتد به ، وينال الكثير من القبول ، ولا يعاند العقل ، كما لا يصادم النقل المنزل ، فلننتقل الى الولـــى عند غير الصوفيه من مفكرى الاسلام بالمعنى الفنى لا المعنى الفقهـــى كمذهـــب .

(المبحث الثالث)

((في فكر الأشاعرة))

فى اصطلاح منسرى الأشاعرة

رغم أن الأشاعرة أحد جناحى اهل السنة والجماعة ، الا ان البعض -لرغبة فى نفسه أو تقليد بغيض- يتهمهم بالفسق ان لم يكن بالكفر والالحاد متوهما أن أراءهم تخالف رأيا لشخص كان خصما لهم سياسيا ، أو فكريا متناسيا ان الخلاف الفكرى ليس خلافا فى النقل المنزل ، وانما هـــو مجرد خلاف فى الفكر أعنى تفهم النقل .. لذا ساعرض راى شيخ منهـــم وعلم من أعلامهم .

الإمام الفخر الرازى (1) :

قدم رحمه الله - فكرا جادا عن الولى ، من حيث التعريف بـــــه ، وبيان صفاته ، وبشرياته ، ودلـل عليه بالمنقول تارة ، والمعقول أخرى ، مما يجعل رأيه جديرا بعرضه ، فربما قرأه من لم يقرأ ، أو اطلع عليه من لم يطلع ، فقد يهتدى للصواب ، وقد يضل فيشقى .

فمن هو الولى عنده ؟

الجواب أن الولى هو من كملت قوته النظرية ، وقوته العملية فالنظرية أشير اليها بقوله تعالى " الَّذِينَ آمَنُوا " ، بينما العملية أشير اليهـــــا

(1) هو فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن على اليمنى البكرى الرازى الشافعى ٥٤٤/٦٠٦هـ وهو من شيوخ أهل السنة والجماعة على مذهب الأشعرى .

بقوله تعالى " وَكَانُوا يَتَّقُونَ " فحصل للولى مجموع الاعتقاد الصحيح والعمل السليم بها (١) .

قال أبو بكر الأصم : أولياء الله هم الذين تولى الله تعالى هدايتهم بالبرهان ، وتولوا القيام بحق عبودية الله تعالى ، والدعوة اليه .

وقال المتكلمون : ولى الله من يكون آتيا بالاعتقاد الصحيح المبنى على الدليل ، ويكون آتيا بالأعمال الصالحة على وفق ما وردت به الشريعة (٢) .

وبالتالى فالاعتقاد الفاسد لا يكون صاحبه وليا ، وان جرت على يديه ما نسبه الكرامات الكونية فلا يمكن الحكم بأنها كرامة ، لأن الأصل الذى تقوم عليه حياته ، والمنهج الذى انطلق منه اتجاهه ، لا يستقيم مع الكرامة الربانية ، ومن ثم لا يكون الحكم على ما جرى له الا انه نوع من الاستنزالات التى يجريها الله على أيدى أولياء الشيطان تحقيرا لشأنهم وانتقاصا لدورهم ، وكشفا لمكنون داخلهم .

كما أن الاعتقاد الصحيح ان لم توافقه الأعمال الصالحة القائمة على ما وردت به الشريعة الغراء ، كان اعتقادا مجردا ، وايمانا نظريا ،

(١) مفاتيح الغيب المجلد الثامن ص ٤٠٠ ط دار الفكر العربى

(٢) المصدر السابق ص ٤٠١

فهو أشبه ما يكون بالاعتقاد الثقافى فى صدقه — فكرة من الأفكار الـــتى ثبتت صحتها ، لكنى لا رصيد لها ، وهو لذلك اعتقاد مشوب بالخطأ ، لأن الاعتقاد الصحيح ان لم يوءازره عمل صالح فلا قيمة له ما دام قادرا عليه ، لذا تقرر فى الأفهام أن الدين أجزاء ثلاثة يكمل كل منهـــــا الآخـــــر .

١— العقيدة الصحيحة : وهى الجانب النظرى فى الدين .

٢— الشريعة التامة : وهى الجانب العملى فى الدين .

٣— الأخلاق الفاضلة الكريمة : وهى الجانب التكميلى فى الدين .

وربما أعتبرها البعض جزأين (١) الجانب النظرى ، وهو العقيدة الصحيحة (٢) الجانب العملى ، وهو الشريعة القائمة على العبادات والمعاملات ، وربما ضم اليها الاخلاق الفاضلة الكريمة باعتبارهـــــا داخلة ضمن الجانب العملى فى جانبه التجميلى والتكميلى معا .

كذلك قرر العلماء ان العمل ان لم يوافق الاعتقاد والقلب لايعتد به ،والا كان عملا فاسدا ، واعتقادا لا قيمة له ، وبهذا يتم التوفيـــق بين العمل الصحيح والاعتقاد السليم ، وعليهما معا يتم صحيح الايمان وتقوم أركان الاسلام .

سمات الولي عنده

لكن ما سمات هذا الولي ؟

الجواب : ١- ما روى من عمر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال " هم قوم تحابوا فى الله على غير أُرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها ، فوالله ان وجوههم لنور ، وانهم لعلى منابر من نور لا يخافون ، اذا خاف الناس ، ولا يحزنون اذا حزن الناس " .

٢- ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : هم الذين يذكر الله تعالى برؤيتهم " قال أهل التحقيق : السبب ان مشاهدتهم تذكر أمر الاخرة لما يشاهد فيهم من أيات الخشوع والخضوع (١) .

٣- سيماهم فى وجوههم من أثر السجود .

٤- المتحقق فيه معنى القرب ، فالقرب من الله تعالى إنما يكون اذا كان القلب مستغرقا فى نور معرفة الله تعالى سبحانه ، فان رأى ، رأى دلائل قدرة الله ، وان سمع سمع آيات الله ، وان نطق نطق بالثناء على الله ، وان تحرك تحرك فى خدمة الله ، وان اجتهد اجتهد فى طاعة الله ، فهنالك يكون فى غاية القرب من الله ، فهذا الشخص يكون وليا لله تعالى (٢) .

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٠٠

(٢) المصدر نفسه ص ٤٠١

من ثم فان الولى لله ، يكون الله تعالى له وليا لأن العلاقة المتبادلة قائمة بكل اركانها ، قال تعالى " ذَلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ ٱلْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ "(١) فالعبد المؤمن التقى ولى الله والله سبحانه وتعالى ولى له ، قال تعالى " ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ "(٢)

٥ـ لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

أما لماذا ؟ لأن الولى يكون مستغرقا فى معرفة الله تعالى بحيث لا يخطر بباله فى تلك اللحظة شىء مما سواه ، ففى هذه الساعة تحصل الولاية التامة للعبد من قبل ربه ، ويقع عليه الفيض الالهى ، فيدخل فى قلبه الاطمئنان ، ولا يتسرب اليه القلق أو الخوف .

ومتى كانت تلك الحالة حاصلة فان صاحبها لا يخاف شيئا ، ولا يحزن لسبب شىء ، وكيف يعقل ذلك والخوف من الشىء ، والحزن على الشىء لا يحصل الا بعد الشعور به ، والمستغرق فى نور جلال الله غافل عن كل ما سوى الله تعالى ، فيمتنع أن يكون له خوف أو حزن .

(١) سورة محمد ـ الآية ١١
(٢) سورة البقرة ـ الآية ٢٥١

وهذه درجة عالية ، ومن لم يذقها لم يعرفها .

ثم أن صاحب هذه الحالة قد تزول عنه الحالة الآمنة المطمئنة ، وحينئذ يحصل له الخوف والحزن ، والرجاء والرغبة والرهبة بسبب الأحوال الجسمانية كما يحصل لغيره[1] .

٦- وقوع البشرى لهم .

والبشريات أنواع فى نفسها ، ولها مواطن تقع فيها ، أما كونها فى نفسها فمنها :

أ- الرويا الصادقة التى تقع للولى - اما لماذا؟ فلأن الولى لله هو الذى يكون مستغرق القلب والروح بذكر الله ، ومن كان كذلك فهو عند النوم لا يبقى فى روحه الا معرفة الله ، ومن المعلوم أن معرفة الله ، ونور جلال الله ، لا يفيده الا الحق والصدق ، ولا يكون ذلك الا للولى[2] .

ولا شك أن الرويا الصادقة تكون صالحة ، ولا تقع الا للنبى لأنها لا تكون الا من الله ، اما الحكم فلا يكون للولى لأنه لا يكون الامن الشيطان .

---

(١) مفاتيح الغيب المجلد الثامن ص ٤٠٢

(٢) المصدر السابق ص ٤٠٣

من ذلك ما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال : " الرؤيا الصالحة من الله ، والحلم من الشيطان ، فاذا حلم أحدكم حلما يخافه فليتعوذ منه ، وليبصق عن شماله ثلاث مرات فانه لا يضره ".[1]

ب — محبة الله تعالى : وهى من البشريات التى تحصل بالولى فاذا وقع له حب الله ، أحبه الناس ، ولذا قيل ان من البشريات محبة الناس للولى ، وذكرهم اياه بالثناء الحسن والفعال الحميد ، من ذلك ما روى عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله ان الرجل يعمل العمل لله ويحبه الناس ، فقال : تلك عاجل بشرى المؤمن.[2]

وكيف لا ، والحديث الشريف قص علينا " اذا أحب الله عبدا نادى فى ملائكته " أنى أحب فلانا فأحبوه ، فتنادى ملائكة السماء فى أهل الأرض ان الله يحب فلانا فاحبوه ، فيوضع له القبول .

واذا غضب الله على عبد نادى فى ملائكته ان الله يبغض فلانا فأبغضوه فيبغضه أهل الأرض فيوضع له البغض ، ولا يكون الحب من الله الا للولى ولا يكون البغض من الله الا لولى الشيطان .

---

(١) الحديث مشهور وهناك آثار عديدة بنفس المعنى

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه

ذلك أن ولى الله تعالى على محبته استقام ، وعلى قربه داوم ، فهو قريب محب ، ومحبوب مقرب ، وكيف لا ، والله عز وجل يملأ قلبه بمحبته ، ويزيد عليه حتى يرضى ، ان أولياؤه الا المتقون" ولا شك أن هؤلاء الاولياء الاتقياء هم أهل محبة الله رب العالمين .

ونحن لا نجد فى القرآن الكريم ، ولا فى السنه المطهره أكثر من الحديث عن موالاة الله لأوليائه ، ومعاداته لأعدائه ، بل أن آيات الذكر الحكيم تفيض بهذه وتلك ، فمن الحديث " من عاد لى وليا فقد آذنته بالحرب " وقوله " انى لأثار لأوليائى ثأر الأسد الحَرِب .

من ثم فقد بان أن ولى الله محل طاعته ورضاه ، وعدو الله ولى الشيطان " ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا ".

(البحث الرابع)

((في فكر المعتزلة))

الولي في اصطلاح مفسري المعتزلة

ذهب أهل الاصطلاح في تعريف الولي مذاهب شتى بعضها على طريق النقل المنزل سار ، فكان حظه التوفيق والسداد ، وبعض آخر سلك طرق الوجدان والعاطفة ، أو العقل الذي لا يقر الا بما هو ماثل أمامه ، قابل للتجربة ، وكل من الفريقين ضاقت به السبل ، وتفرقت معه الآراء حتى صار من الأمثل ضرب صفح عنها .

بيد أن الطريق الذي امتثل النقل هو القويم من الطرق ، من ثم سنحاول جمع أطرافه ولو بذكر نماذج ، فربما كان في القليل بركة تغني عن كثير زوع البركة ، وعلماء التفسير ممن تعرضوا لمسألة الولي والولاية ، فيحسن ان نتعرف على بعض وجهات نظرهم في المسألة .

بيد أن بعض الناس يرون المعتزلة ممن ينكرون الولاية أو يطرحون فكرة الولي ، ولا يقرون بالكرامة ، وهذا نوع من الأحكام المعممة التي لو بحثت ربما تغيرت النتائج تماما ، بل إنه من كثرة ما تردد الاتهام بالكفر أو الانكار على بعض قوم بات الغير يعتبرها قاعدة دون أن يعرف من ذا الذي يقلد ، لذا سأتناول المسألة عند واحد من علماء المعتزلة حتى يكون نصوصه هي الحكم عليه أو له .

— الامام الزمخشري [1]

قال الزمخشري " أولياء الله الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة [2]

ثم استدل بما روى عن سعيد بن جبير رضى الله عنه " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل :

من اولياء الله ؟

١ــ فقال : صلى الله عليه وسلم ــ " هم الذين يذكر الله برؤيتهم ، يعنى السمت والهيئة "

٢ــ وقيل : هم المتحابون فى الله .

٣ــ عن عمر رضى الله عنه قال : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : إن من عباد الله عبادا ما هم بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله .

قالوا : يا رسول الله .. خبرنا من هم " وما أعمالهم ، فلعلنا نحبهم .

---

(١) هو الامام محمود بن عمر الزمخشرى من رؤس المعزلة الذين لهم قدم ثابتة فى المذهب توفى فى ٥٢٨هـ ويزعم الكثيرون أن المعتزلة ينكرون الولاية والكرامة ، ولكن المسألة بخلاف ذلك على ما هو بين من عبارات القوم .

(٢) الزمخشرى ــ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ــ المجلد الثانى ص ٣٥٥ / ٣٥٦ .

قال : هم قوم تحابوا فى الله على غير أرحام بينهم ، ولا امـــــوال يتعاطونها ، فوالله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلى منابر من نور ، — لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون اذا حزن الناس[1] ثم قـــرأ الآية " أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيـــلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ[2] .

وكما ذكر الزمخشرى الأولياء ، فكذلك ذكر بعض صفاتهم ، وأنها :

١ــ الايمان الصحيح ، والعقيدة السليمة ، والأعمال الصادقـــة ، والنوايا الخالصة لله رب العالمين " الذين آمنوا ".

٢ــ التقوى ، التى برزت مع استمرار العبادة ، مع استصحاب صحـــة العقيدة ، وسلامة النوايا حتى كانت التقوى هى الصفة الثابتة لهــم بعد الايمان بالله رب العالمين ، ولما كان الايمان والتقوى يتآخيان فى عقل الولى ووجدانه ، ويقومان فى ضميره واحساسه ، فقد جـــاء النقل المنزل جامعا لهما معا " الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ .

---

(١) ورد الحديث من طرق كثيرة يقوى بعضها الآخر فاخرجه ابن أبـــى شيبه من رواية أشعث بن اسحق ، وابن مردويه من طريق يحيـــى الحماس ، ووصله النسائى والبزار من رواية محمد بعن سعيد / راجـــع هامش ص ٣٥٥ .

٣— البشريات ، ذلك أن الولى آمن واتقى ، وبالتالى فإن البشريات الصالحات تلازمه كأنها صفة له لا تنفك عنها ، ولا تنفلت منه ، سواء فى الدنيا أو فى الآخرة ،

« فالبشرى فى الدنيا ، ما بشر الله به المؤمنين المتقين فى غير مكان من كتابه الكريم ، (١) وفى سنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، فعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ذهبت النبوة وبقيت المبشرات ، وقيل : المبشرات — فى الدنيا — هى محبة الناس له ، والذكر الحسن .

وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : قلت : لرسول الله صلى الله عليه وسلم : الرجل يعمل العمل لله ، ويحبه الناس ، فقال : تلك عاجل بشرى المؤمن (٢) هذا فى الدنيا ، أما فى الآخرة فمنها ما روى عند الموت وعن عطاء : رضى الله عنه انه قال — لهم البشرى عند الموت تأتيهم الملائكة بالرحمة ، قال تعالى : تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ .

ومن البشريات ما يكون فى الآخرة ، وذلك حين تتلقاهم الملائكة من مسلمين مبشرين بالفوز والكرامة ، وما يرون من بياض وجوههم ، واعطاء

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٣٥٦ .
(٢) اخرجه الامام مسلم بلفظ — فتحبه وتحمده الناس عليه .

الصحائف بأيمانهم وما يقرؤن منها " وكل هذا من الدلائل على أن أولياء الله يبشرون فى مواضع ثلاثة :

الموضع الأول : فى دار الدنيا .. لهم البشرى فى الحياة الدنيا ، وهو نوع من الكرامة ، والبشرى فى الحياة الدنيا متعددة منها :

١ــ ستر الحال ، والرضا بالأقدار ، والعيش بين الناس فى سلام .

٢ــ الرؤيا الصالحة يراها الولى بنفسه أو يراها صالح من أهل الله له .

٣ــ تزداد محبة الناس له ، لأنها من نتاج محبة الله رب العالمين .

٤ــ الذكر الحسن ، والثناء الحق ، والنصح الجميل .

وتلك البشريات للولى كلها تقع له فى دنيا الناس ، حتى يكون بينهم علامة مميزة ، ودليلا منصوبا ينظر اليه غيره ، على أنه من صور الرحمة الالهية ، والكرامة الربانية .

الموضع الثانى : عند الموت : "تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ" ، ومن المكرر أن البشريات عند الموت التى تقع لولى الله متعددة منها :

١ــ أن يرى صالح عمله فى خاتمة السعادة حين يخرج من الدنيا ومن دعائه صلى الله عليه وسلم " اللهم اختم لنا بخاتمة الخير "

٢- أن يطلعه الله على منزلته عنده حيث تنفرج أساريره ، ويخرج من دنياه مسرورا لأخراه .

٣- يرسل الله اليهم ملائكته يبشرونهم بالجنة التى وعدهم الله بها .

الموضع الثالث : فى دار الآخرة تتلاقاهم الملائكة بالبشر والسرور والسلامة والحبور " لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ"(١) . اذن دعوى أن المعتزلة ينكرون الولاية أو كرامات الأولياء لا تنهض فى مواجهة الزمخشرى على الأقل ، لأنه مسلّم بوجود الأولياء ، ومقر بكراماتهم على ما سلف ذكر طرف منه .

وفى تقديرى : ان المعتزلة مقرون بالأولياء والكرامات لورودهما فى القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة ولغة العرب ، وربما الخلاف فى اقرارهم بولى معين ، أو كرامة محددة ، ثم ربط تلك الكرامة بهذا الولى نفسه نظرا لاتجاههم العقلى فى بعض القضايا التى تناولوها .

بيد أن تعميم الأحكام فى القضايا التى يحتاج فيها الى التخصيص انما هو نوع من السياقات التى لا تؤدى نتائج مقبولة ، بجانب أنها قد تنتقص بغمط حق جاهد فيه صاحبه ، أو وصف آخر بما لم يقله .

(١) سورة الأنبياء — الآية ١٠٣

أو تجرى به عباراته ،وقد كانت احدى سمات الفكر الاسلامى ، متى كانت الخلافات السياسية تحكم الأمور العلمية ولو انعكس الأمر لتمايزت المناهج ،وتغيرت بعض الأحكام .

كما أن الدراسة المجردة المتأنية لا تصدر أحكام الانكار على كل المعتزلة ، فان وجد بينهم من ينكرها نص عليه وان كان فيهم من يتأولها ذكر بعينه ، أما اصدار حكم عليهم لمجرد صدور فكرة عنهم ، بما لم تصح نسبتها إليهم فما أظنه المنهج العلمى الذى يقبل شرعاً ويطمئن صاحبه إلى السلامة يوم لقاء الله رب العالمين . من ان المعتزله كتيار فكرى نهض لما نيط به ، اذ ن من غير المعقول ان نتهم القوم بما لم يقولوه مجاراة لرأى الخصم فيهم ، أو طعنه عليهم ، فليست هى مناهج القران الكريم ومن يطالع قول الله تعالى " قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين ، يجد ذلك واضحا .

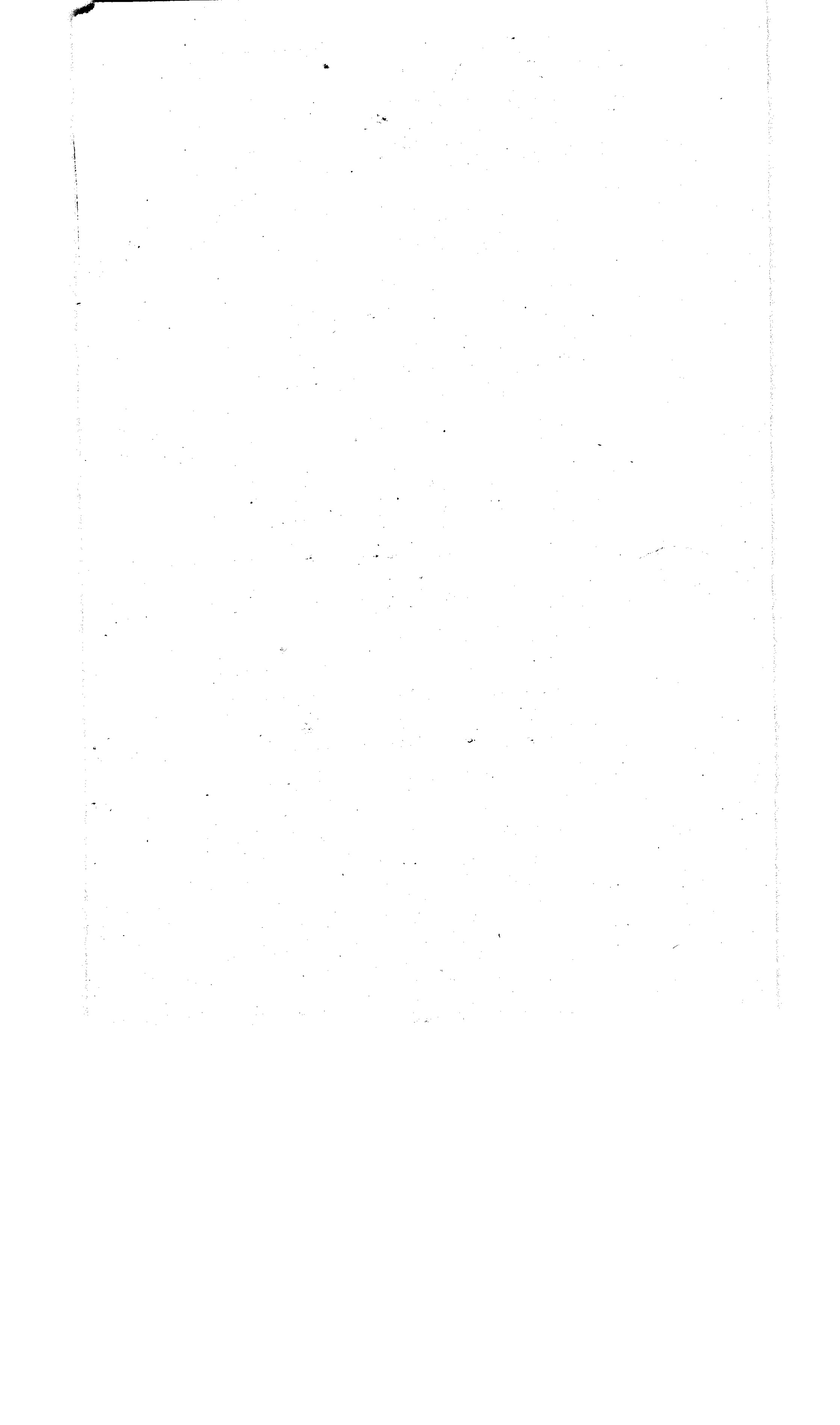
كما أن الزمخشرى وغيره كالقاضى عبد الجبار ، وغيرهما من زعماء المعتزله لم ينكروا الولايه للاولياء ولكنهم ربما رفضوا التاكيد على ولى بعينه ، وولاية محددة ، وهى من سمات الفكر الدينى ، فلا يقع اللوم للقوم عليها .

الا اذا افترضنا أن جميع المفكرين قد زلت بهم الأقـــدام أو انغمست في الأخطاء منهم الأقلام ، سواء في ذلك الأشاعـرة أو الماتريدية ، وسواء نسب ذلك للسلفية أم للمعتزلة وحينئـذ تكون المسألة مجرد تحكمات ، وظنون لا تقف معها أدلــة ، أو شبهات لا تنهض في مواجهة المسلمات .

لذا فمن الأنسب ان نعتبر المعتزلة — وهو الواقع الفعلــى أصحاب نظر ، ربما أخطأوا وقد تقع لهم الاصابة ، ثم انهم بشـــر لا عصمة لهم ، وبالتالى فالادانة لهم من غيرهم ، انما هى اختلافات فكرية ، ومثلها لا يكون طاعنا عليهم ، ولا ينقص من اقدارهـــم ، أو يقلل من صدق انتسابهم الى الاسلام .

(البحـــث الخامـــس)

((فـي ذكـر الشــــبهـة))



في اصطلاح مفسري الشيعة

الشيخ / اسماعيل البروسوى

عرف الولى بأنه الحبيب ، وولى الله هو حبيب الله ، ولا ينطبق تعريف الولى إلاّ على " خلص المؤمنين لقربهم الروحانى منه سبحانه وتعالى ، لأنهم يتقربون اليه بطاعته والاستغراق فى معرفته ، بحيث اذا رأوا دلائل قدرته تعالى ، وان سمعوا سمعوا آياته ، وان نطقوا نطقوا بالثناء عليه ، وان تحركوا تحركوا فى خدمته وبالتالى فلا خوف عليهم فى الدارين من لحوق مكروه[1] .

وهنا ملمح طيب ، فالبروسوى يفسر لا خوف عليهم من لحوق مكروه فقط ، أما الخوف مما يمكن حدوثه فى المستقبل ، كالنكوص على العقب ، والتبديل ، والتخلى عن درجات القرب ، فهم فى هذه الحالات أشد خوفا ، أنهم يحبون الله ويطمعون أن يبلغ ذلك الحب مداه ، ويخشون التبديل ، ومن ثم يقع لهم هذا النوع من الخوف ، وليس بخوف غيرهم من لحوق المرض ، و الفقر ، أو عوارض الحياة الدنيا ، فهم ما انتظروا تلك العوارض ولا تعلقوا بها ، حتى اذا وقعت لهم نالهم شىء من

(١) من شيوخ الشيعة توفى ١١٣٧ هـ ومن اعلامها المبرزين .

الضيق ،أو هم يخافون وقوعها ، لأنهم أَمِنوا هذا الجانب فى أنفسهم وأزاحوا مثل ذلك التعلق من صدورهم .

كما أن المحب دائما يترقب مواطن ارضاء حبيبه ، ويخاف أن يخفق فى الوصول الى درجات ارضائه فكذلك الولى يعيش فى خوف شديد من أن تزل به القدم بعد الثبوت ، أو الكَلِم بعد الاستقرار ،أوالقلب بعد الترويض على الطاعة ، وذلك هو الخوف الذى مال اليه شيوخ المذهب وهو ليس خوفا منفيا فى مجمله انما الخوف المنفى هو خوف التعلق بالأعراض والأغيار ، وليس من شأن الولى التعلق بهما .

لكن ما هى سمات الأولياء عند الشيعة ؟

الجواب :

١ـ ان الأولياء جمعوا بين الايمان والتقوى ، كانوا يتقون الله تعالى من صدور سيئات الأعمال والأخلاق فى مرتبة الشريعة والحقيقة ، لأنهم يصلحون طبائعهم بالشريعة ، وأنفسهم بالذكر ، وقلوبهم بالمعرفة وأرواحهم بالحقيقة ، من ثم فهم يتقون من جميع ماسوى الله (١)

(١) المصدر نفسه ص ١٥٠

ان تحفظهم فى علاقاتهم مع الغير ، أما مع الله فهم به هائمون .

٢ـ وصفهم الأمام على كرم الله وجهه بأنهـــم فى حبه دائمـــون وعلى طاعاته قائمون ،وهو الله رب العالمين .

أ ـ صفر الوجوه من السهر " لأن حبهم لونهم فكان داعياً قويــاً لاستمرار التقوى ، ومزيد العبادة .

ب ـ عمش العيون من العبر " لأنهم فى ذكر وفكر ، وفى كل شـأن مما خلق الله عبر .

جـ ـ خمص البطون من الطوى

٣ـ أنهم المتحابون فى الله " هم الذين يذكر الله برؤيتهم (١) أى بسمتهم ،وإخباتهم وسكينتهم .

٤ـ أنهم الذين شغلهم بالله وفرارهم اليه وحده ،أفنوا أحوالهم فى مشاهدة مالكهم ، فتوالت عليهم أنوار الولاية ، فلم يكن لهم عن نفوسهم أخبار ، ولا مع واحد غير الله قرار (٢) .

---

(١) رواه البزار عن ابن عباس

(٢) تنوير الأذهان ـ المجلد الثانى ص ١٥١

٥— وقوع الكرامات القلبية لهم كالعلوم الالهية — العلم اللدنى — والمعارف الربانية " فانها من الكرامات التى لا يوصف بها الا الأولياء فقط ، لأن الكرامات الكونية ، كالمشى على الماء ، والطيران فى الهواء ، وقطع المسافات البعيدة فى زمن يسير ، ربما وقعت لغير المسلمين أصلا . .

فكم أنبأت حوادث الدهر عن صدور هذه الأمور ، الغير مألوفة فى الجانب الكونى — من الرهبان والمتفلسفة ، الذين استدرجهم الحق بالخزلان من حيث لا يعلمون(١) ، اما الكرامة الالهامية التى تقع فيها المعارف الربانية ، فهى خاصة بالأولياء وحدهم .

والقرآن الكريم حدث عن النوعين ، وبين أن كلا منهما يقع للولى القائم على الطاعة تثبيتا له ، وبيانا لموقفه من ربه ، كالحال مع العبد الصالح وموسى الكليم (٢) عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم وما وقع لأم موسى عليه السلام ، من ارضاعها الولد ، والقائه فى اليَمّ (٣)

(١) المصدر نفسه ص ١٥٢
(٢) سورة الكهف الآيات من ٦٥/ ٨٢
(٣) سورة القصص الآيات من ٧ / ١٣

فهذه بعض من الكرامات الالهامية .

أما ما وقع لمريم رضى الله عنها من الجذع حين تهزه فيسقط بفضل الله الرطب الجنى (١) وذلك كله من قبيل الكرامة الكونية ، ومثلها الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها ، وما وقع لحماره (٢) وطعامه وشرابه ، ونومه المدة الطويلة — مائة عام — دون ان يحدث تلف أو اختلاف فى الامور المنضبطة " قال بل لبثت مائة عام فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنه "، ومثل هذا من الكرامات الكونية التى جاءت تثبيتا وتأكيدا .

اما ما جاء من قبيل الاستدراجات والاستنزالات التى تودى بصاحبها الى الهلكة ، وتورده موارد الضلال فمنه عجل موسى السامرى " قال فما خطبك يا سامرى قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى (٣) ومن ثم لا تكون كرامات، لأن شرط الكرامة وقوعها إكراماً لولى الله .

---

(١) سورة مريم الآيات من ٢٣ / ٣٦
(٢) سورة البقرة الآية ٢٥٩
(٣) سورة طه

روى أن السامرى عوقب ومن رحمة الله طرد ، فكان اذا مـس أحداً أخذ الماس والممسوس جميعا بحمى شديدة فتحامى الناس وتحاموه ، وكان يصيح بأقصى صوته لا مساس ، وحرم عليهم ملاقاته ومواجهته ، فصار وحيدا طريدا يهيم فى البرية مع الوحش والسباع (١) وهو نـوع من الاستدراج (٢) أو الاستنزال (٣)

والملاحظ أن الولى فى مفهوم المفسر الأشعرى ـ الرازى ـ هـو نفسه الذى فى مفهوم المفسر المعتزلى ـ الزمخشرى ـ كما أنه فـى فكر المفسر الشيعى ـ البروسوى ـ نفس المعنى ، مما يؤكد وجـود الولى لدى المفسرين على أختلاف اتجاهاتهم ومناحيهم ، بل أنهـم جميعا توجد علاقة بين ما انتهوا اليه وما انتجته معطيات اللغـة العربية .

ومما يلفت الأنتباه ، اتفاقهم جميعا على ذكر بعض الكرامات الكونيـة والالهامية الواردة فى القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة والتأكيـد

---

(١) تنوير الاذهان ـ المجلد الثانى ص ٤٤٣
(٢) عرفوا الاستدراج بأنه " كون العبد بعيدا عن رحمة الله تعالى وقريبا الى العقاب تدريجا ، كما عرف بأنه ـ الدنو الى عذاب الله بالامهال قليلا ، وكذلك عرف بأنه " ان يرفعه الشيطان درجة الى مكان عـال ثم يسقطه من ذلك المكان حتى يهلك هلاكا ، التعريفات للجرجانـى ص ١٤
(٣) الاستنزال هو الهبوط من عال الى اسفل تحقيرا لشأن صاحبه .

على تلك الكرامات بكافة ألوان التأكيد المعهودة فى اللغه واتجاهات المفسرين ، مما يدفعنا الى التأكيد بان الولى له وجود حقيقى فى القرآن الكريم والسنه الصحيحة ، مما يجعل المنكرين تسقط اتهاماتهم ويتأكد عكس اتجاههم ، ويثبت وجود الولى والكرامة على النحو الذى سلف بعضه .

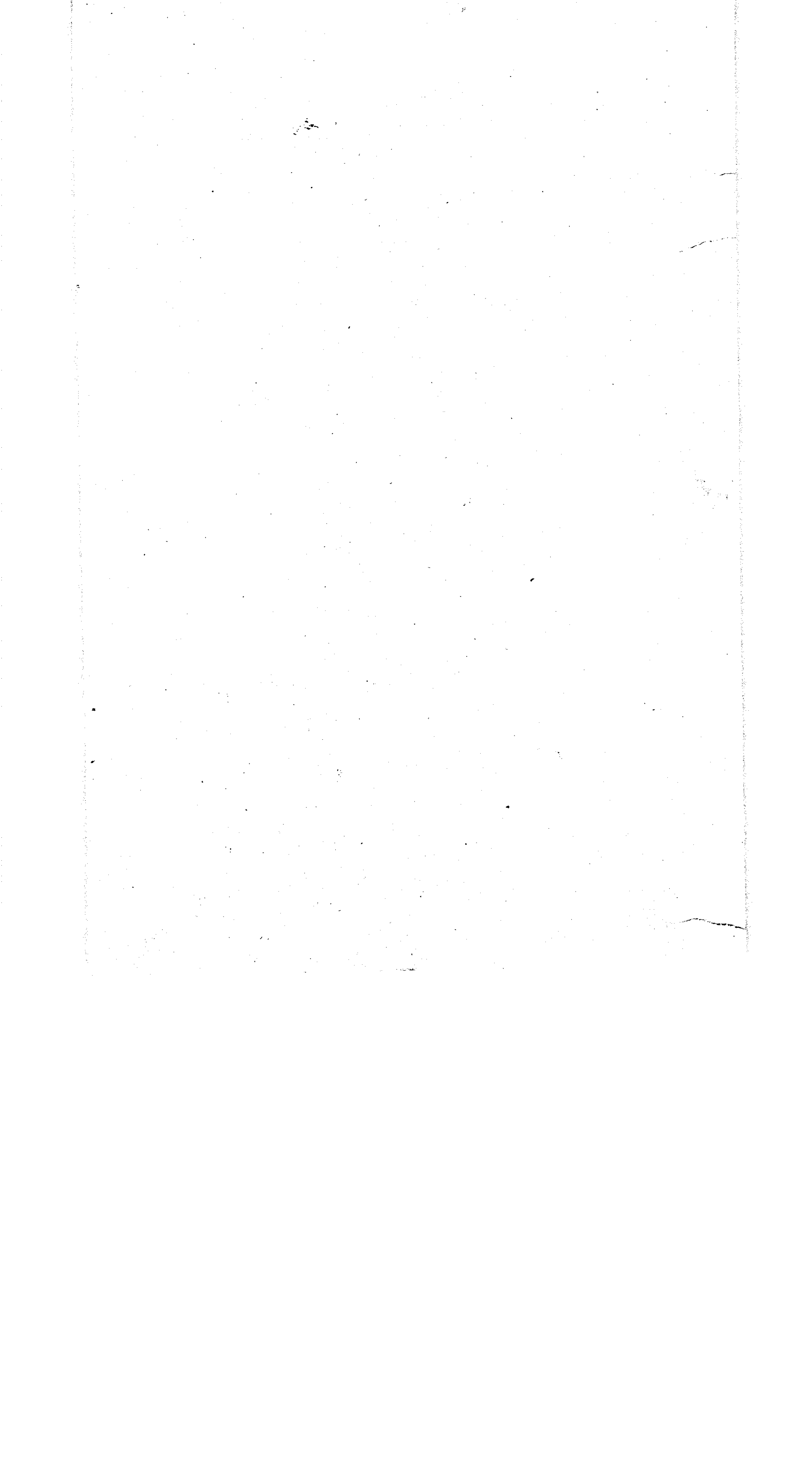
كما أن المراد التأكيد عليه هو ضرورة اعتقاد وجود ولى ، لكن لا بتحديد شخص بعينه وانما بسماته التى يعرف بها ، وهو مذهب جمهور المسلمين ، أما الاعتقاد فى ولاية شخص بعينه ممن لم يذكرهم القرآن الكريم ، لمجرد أنه حكيت عنه كرامات كونية فهذا مما لم ينل حظه من الدراسة ، ولم يقع له نوع من الاجماع .

على ان مما يؤكد وجود الأولياء فى دنيا الناس هذا الرصيد الهائل من الحب لهم ، وربما من غير سابق معرفة بهم ، فكم أحببنا فى الله شخصا ، ثم تلاقينا مع غيرنا ، فتذاكرناه فاذا نفسه صاحب الرصيد الأوفى فى قلوب كل من تحدثوا ، لا طلبا لمنفعة ، ولا جلبا لمصلحة ، أنما هو الحب فى الله ، الذى ربما تستأنس له بالأثر المشهور " ألسنة الخلق أقلام الحق " .

بيد أن هذا الحب الذى توارد على قلوب هؤلاء انما هو نوع من الولاية ، حيث أجرى الله محبته فى قلوب هؤلاء ، وعلى ألسنة أولئك من غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ، أو تجارة يتد اولونها ، انما هو الحب فى الله وحده ، وهو القاسم المشترك الذى يجمع بين كافة المؤمنين بالله رب العالمين ، من حبهم لأولياء الله الصالحين .

الفصل الرابع

((الولايـة فى الفكر الإسلامى))



الولاية فى الفكر الاسلامى

تحدثنا عن الفكر الاسلامى والنقل الاسلامى ، وفرقنا بين كل منهما ، كما عرفنا خصوم الفكر الاسلامى والشبهات التى ظنوها موصلة اياهم الى أغراضهم التى باتت فى اعماقهم ، ثم بينا أنها مجرد تخرصات وضلالات قصد بها الطعن على الاسلام فى نصوصه وفهم دينه .

كما وضح لنا أن كل الإتهامات ارتدت اليهم ، وسقطت عليهم وأن الفكر الاسلامى طود شامخ ، وعمق لا يصل اليه امثال هؤلاء الحقدة ، انما يبلغ فيه الخير أهل العلم والايمان والتقوى ، فهو أمر يقود الراغبين للاستفادة منه ، أما أهل الهوى والاحقاد ، فلن ينالوا منه منالا .

وها نحن نحاول بيان ناحية من الفكر الاسلامى ، فى جانبه الروحى المتعلق بالايمان والتقوى ، القائم على مزيد القرب من الله تعالى باستمرار الطاعة له جل علاه ، حتى تتوالى عليه الكرامات تحقيقا لما رواه صلى الله عليه وسلم " وما يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه (١) .

(١) رواه البخارى فى صحيحه ، وهو مشهور فى كتب السنة .

وهذا المحبوب من قبل الله تعالى ، المصطفى لا على جهة النبوة ، هو الولي لله ، الذي أحب الله فأحبه الله وجعل له بين الناس قبولا ، ثم جعل له عنده تعالى ولاية دائمة ، وأمورا قائمة ، وأحوالا على ما يوافق الشرع مستمرة ، وإلى ما يرفع القدر والدرجة متواصلة .

فعن قيس بن طارق قال : كنا نتحدث أن عمر – بن الخطاب رضي الله عنه – ينطق على لسانه ملك ، وكان عمر يقول : اقتربوا من أفواه المطيعين ، واسمعوا منهم ما يقولون ، فانه تتجلى لهم أمور صادقة (١) وهذه التجليات التي لا تعرف لغيرهم من الولاية الرحمانية ، أما الأخرى التي لأولياء الشيطان فهي الولاية الشيطانية ولا علاقة لها بالفكر الاسلامي صوفيا كان أو غيره .

فما هي الولاية ؟

وما أنواعها ؟

وما أقسام كل منها ؟

وما هي خصائص كل منها ؟

---

(١) شيخ الاسلام ابن تيمية مجموع الفتاوى . التصوف المجلد [illegible] ص ٢٠٤ ، ٢٠٥

أولا : تعريف الولاية :

الولاية من الولى وهو القرب ، فهى قرابة حكمية حاصلة من العتق أو من الموالاة ، وهذا التعريف لاحظ فيه العلاقة الفقهية ، والعلاقة اللغوية ، وهناك تعريفات أخرى منها :

" **الولاية** : هى قيام العبد بالحق عند الفناء عن نفسه (١) وهو اصطلاح الصوفية على أساس أن العبد الذى تزداد علاقته بالله تعالى قربا ، لا يشعر بنفسه ، انما شعوره كله بالله ، فهو فى حقيقة أمره مشغول بالله على كل نواحيه ، ولذا فقد قامت نفسه بربه حتى لم يعد يرى من نفسه أمرا آخر .

" **الولاية الربانية** : هى المحبة من العبد للرب ، وقربه منه ، حتى كان العبد محبوبا من الله تعالى ، مقربا اليه ، لأن الولاية ضد العداوة ، وأصل الولاية المحبة والقرب ، كما أن أصل العداوة البغض والبعد (٢)

كما تعرف بأنها " الموافقة والمتابعة لله فيما يحبه ويرضاه ويبغضه ويسخطه ، ويأمر به ، وينهى عنه ، ومن تحققت فيه فهو الولى

---

(١) التعريفات للجرجانى ص ٢٢٧
(٢) شيخ الاسلام ابن تيمية – التصوف ص ١٦٠ ، ١٦١

وتصير هى الولاية " هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا " (١)

كذلك عرفت بأنها " استخلاص الله بعض عباده ، واستعمالهم فى طاعته ، وتشريفهم بمحبته ، وانالتهم من كرامته ، فهو وليهم يحبهم وينصرهم ، وهم أولياء يحبونه ويعظمونه .... اذا سألوه أعطاهم ، واذا استعانوه أعانهم ، واذا استعاذوا به أعاذهم ، - وأنهم أهل الايمان والتقوى ، والكرامة والبشرى فى الدنيا والآخرة (٢)

على أن التعريف الأخير انما يركز على الجانب الالهى الذى هو اصطفاء الله لعبد من عباده ، فهى لهذا قريبة جدا من النبوة ، مع أنهما ليستا شيئا واحدا ، انما هناك فوارق كثيرة بين الولاية والنبوة ، كما أن هناك فوارق بين النبى والرسول ، والمعجزات والكرامات .

كما أن الولاية الربانية فيها جانب كسبى يقع للعبد باستمرار على الطاعة ، والمداومة على طرق باب الكريم المتعال ببذل المزيد منها ، والاستمرار فيها ، والتركيز عليها ، والا فكيف تتحقق له الولاية

---

(١) سورة الكهف - الآية ٤٤

(٢) الاستاذ / ابو بكر جابر الجزائرى / منهاج المسلم ص ٥٦ ط دار الاقصى بالقاهره الاول ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م

ما لم يكن قد حاول الوصول اليها ، وكيف لا وقد وردت السنة المطهرة بهذا الجانب الكسبى ، القائم على توفيق الله تعالى .

روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " يقول الله تعالى : من عادى لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة ، أو فقد آذنته بالحرب - وما تقرب الى عبدى بمثل أداء ما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، فبى يسمع وبى يبصر ، وبى يبطش ، وبى يمشى ..

ولئن سألنى لأعطيته ، ولئن استعاذ بى لأعذته ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن ، يكره الموت وأكره مساءته ولابد له منه " وهذا أصح حديث يروى فى الأولياء فبين النبى صلى الله عليه وسلم " أنه من عادى وليا لله ، فقد بارز الله بالمحاربة (١) .

ان الولاية الربانية فيها اتجاه من العبد نحو الرب الكريم

(١) شيخ الاسلام ابن تيمية - التصوف ص ١٦٠

جل علاه ، واستجابة من الله تعالى لعبدة فيما ارتجاه ، فتكـــون الولاية بين العبد والرب موالاة ، يحقق الله للعبد دعواه ، ويسمع له ما به ناداه ، فيرفع بين العالمين قدره ، ويعلى فيهم ذكـــره ، ويجعل الخوارق على يديه أمرا ميسورا ، وأبسطها استمراره فـــى الطاعه ، وادامته على أبواب التوفيق الالهى كلها .

ثم ولاية الله للمؤمن داخلة فيها ولايه رسول الله صلى اللـــه عليه وسلم للمؤمن ، لأن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم " من حين بعثه الله جعله الله الفارق بين أوليائه وبين أعدائه ، فلا يكون وليـا لله الا من آمن به وبما جاء به ، واتبعه ظاهرا وباطنا .

ومن أدعى محبة الله وولايته ، وهو لم يتبعه فليس من أولياء الله بل من خالفه — رسول الله صلى الله عليه وسلم — كان من أعـــداء الله وأولياء الشيطان (١) " قال تعالى : ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ (٢).

---

(١) شيخ الاسلام ابن تيمية — التصوف ص ١٦٣

(٢) سورة آل عمران — الآية ص ٣١ — ٣٢ .

وكما أن ولاية الله هي نوع من الاصطفاء المحدد ، فان لهـا مظاهر لا يشاركها فيه شيء غيرها ، انها تقوم على :

١- طاعة الله رب العالمين .

٢- إستمرار تلك الطاعة .

٣- الاستقامة على وجه الكمال البشرى الممكن .

٤- إتباع الرسول صلى الله عليه وسلم .

وذلك لأن محبة الله تعالى وولايته تستلزمان اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم في كل ما يأمر به ، والانتهاء عن كل ما نهى عنـه ، اذ الالتزام والمتابعة له أمر مهم في الحكم على العبد بأنه من المقربين ووصفه بأنه في الولاية الالهيه قائم ، وتحت طاعاته تعالى مستمر ملازم .

ولعل ذلك مما ورد الحديث الشريف بالتنبيه عليه ، والتنويـه لما فيه من قوله صلى الله عليه وسلم ، والله لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به " وقوله صلى الله عليه وسلم : واللـه لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من نفسه ، وأهله ، وماله ، والناس أجمعين . فمن تحقق فيه اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم بعد الايمان بالله رب العالمين ، فهو ممن تحققت فيهم الولايـة الالهية .

على أن مجرد الزعم باتباع الرسول صلى الله عليه وسلم غير كاف فان هذه المزاعم كثيرا ما يدعيها آحاد الناس ، لكنها لا تقف معهم عند حد معين ، لأنها مجرد ظنون ودعاوى كاذبه لا تجد سندا واحدا يؤيدها ، من ذلك :

١— ادعاء محبة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومع هذا يخالف في اتباعه صلى الله عليه وسلم ، فمن يعيش للجدل ، لا هم له الا اظهار الغلبة والقدرة على الانتصار ، حتى ربما وصل به جدله الى الالحاد ، ومع هذا يدعى محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مع انه مخالف تعليماته صلى الله عليه وسلم التى منها قوله صلى الله عليه وسلم ، " أنا زعيم ببيت فى ربض الجنة لمن ترك الجدال وان كان مازحا " وزعيم ببيت فى أعلى الجنة لمن ترك الجدال وان كان محقا "

٢— تقليد أهل التقوى والصلاح ، فبعض الناس يتصورون أنهم بتقليدهم أهل الخير قد حازوا سبقا وفازوا فى كافة الجولات ولذا فهم يحاولون اذاعة الخير على أنفسهم ، وحبك بعض القصص الخيالية عن أسرارهم واحلامهم ، حتى أنهم ربما أطالوا

لداهم ، وحجوا فى كل عام آملين ان تبلغ بهم المسألـــــة

ـ التقليد ـ مبلغ الوصول درجة الولاية والقرب ، وما هـــم

الا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء

الكافرين الا فى ضلال .

لقد حاقت بهم أعمالهم ، وهبطت معهم درجاتهم ، وسقطت

أوهامهم فى زعمهم التقوى وادعائهم الصلاح لأن ولاية الله لهـــا

ضوابط أهمها المتابعة لله فيما أمر على السنة رسله ، وفى مكنونـات

كتبه حتى اذا كانت نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فـــأن

الولاية الالهية لا تكون الا لمن يؤمن بالله ، واتبع سنة رسوله صلـى

الله عليه وسلم ، والتزم بما تركه لنا رسول الله صلى الله عليه وسـلم

قرآنا يتلى ، وسنة تصان وتتبع .

قال صلى الله عليه وسلم : عليكم بسنتى وسنة الخلفــــاء

الراشدين المهديين من بعدى ، عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكـم

ومحدثات الأمور ، فان كل محدثه بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكـل

ضلالة فى النار .

والمعروف ان البدعة نوعان : باعتبار الايمان والكفر .

١ـ بدعة مكفرة

٢ـ بدعة لفسق صاحبها

هذا التقسيم باعتبار معين

وهناك تقسيم آخر للبدعة ، باعتبار اللفظ اللغوى والمعـــنى الحقيقى فهى اما :

١ـ بدعة واجبة لكتابة القرآن الكريم فى المصاحف

٢ـ بدعة مباحة كالمناخل وغيرها

٣ ـ بدعة مندوبة

٤ـ بدعة مكروهة

٥ـ بدعة حرام

وكذلك هناك تقسيم للبدعة باعتبار آخر :

١ـ بدعة تتعلق بالاعتقاديات

٢ـ بدعة تتعلق بالعبادات

٣ـ بدعة تتعلق بالمعاملات

ولسنا بحاجة الى التفصيل الآن .

الفصل الخامس

((الكرامـــة فى الفكــر الصــوفى))

الكرامة في الفكر الصوفي (*)

الكرامة بالنسبة للصوفية - على وجه الخصوص - تمثل جزء من تكوينهم الفكرى ، كما تتقرر عندهم وتتكرر سواء فى المريد أو شيخه من ثم فان القوم يثبتونها ، ولهم فى تناولها أكثر من وجهة نظر فماذا عن تعريفهم لها ؟

= الامام القشيرى : عرفها - رحمه الله - بقوله الكرامة فعل ناقض للعادة ، فى أيام التكليف ظاهرا على موصوف بالولاية فى معنى تصديقه فى حاله (١) ويبدو أن هذا التعريف لم يره الشيخ كافيا فأردفه بتعريف آخر قال فيه " الكرامة فعل لا محالة محدث لأن ما كان قديما لم يكن له اختصاص بأحد وهو ناقض للعادة ، ويحصل فى زمان التكليف ، ويظهر على عبد تخصيصا له وتفضيلا ، وقد تحصل باختياره ودعائه ، وقد لا تحصل وقد لا تكون بغير اختيار فى بعض الاوقات ، ولم يأمر الولى بدعاء الخلق الى نفسه ولو أظهر شيئا من ذلك على من يكون أهلا له لجاز (٢) .

(١) الامام القشيرى الرسالة القشيرية ص ٢٧٤

(٢) المصدر السابق ص ٢٧٤ / ٢٧٥

* تم قبس هذا الفصل من كتابنا " الايمان بالغيب وأثره على الفكر الاسلامى " نظرا لضيق الوقت .

يناقش هذا التعريف بنوع ما من شىء من الملاحظات أهمها :

<u>أولا</u> : انه اعتبر الكرامة فعلا بينما الكرامة تشمل الفعل والترك وقد حدثت كرامات [illegible] تروكا [illegible] الاحراق فى النار مع أبى مسلم الخولانى ، وعدم تأثير السم فى جسم خالد بن الوليد ليس فعلا ، انما هو ترك فعل . والصوفية والمتكلمون والمثبتون للكرامة يجيزون [illegible] عن أمر كان جامعا .

<u>ثانيا</u> : تحديد الفعل الناقض بالظهور على موصوف بالولاية وهذا التحديد غير قائم – لأن الكثيرين ممن ظهرت على أيديهم الكرامة فضلا من الله لم يكونوا موصوفين بالولاية فاهل الكهف وآصف : متى كان ظهور الولاية عليهم موضع هذا أكرمهم الله بالكرامة ، اذن الولاية قد تظهر بعد الكرامة .

أما عن التعريف الثانى للقشيرى فعليه من الملاحظات الكثير منها :

أولا : ما توجه على التعريف الأول .

ثانيا : أنه يعطى الولى أكثر مما تعطيه المعجزة للنبى ، أما كيف؟ فالجواب عن أن النبى تأتيه النبوة غير مسبوقة بمعرفته بها ومن غير

طلبه أياها ، أما الكرامة مع الولى فتأتيه اياها واختياره لهـــــا ، ودعائه ربه أن تأتيه تلك الكرامة وهو ما لم يحدث مع النبى فى المعجزة ولكن هل يمكن اعتبار أصحاب النظرة السابقة من المعتدلين فـــى التصوف ، ام من غلاة المتصوفة ، أم من أقربهم الى الاعتدال ؟ أم المتوسطين فيــه ؟ ...

الجواب ان الكرامة كشفت لنا طوائـــف ..

* الطائفة الأولى : هى الأقرب الى الاعتدال وقد مر ذكرها .
* الطائفة الثانية : وهى الغلاة .

وهم يرون أنه من الاكثر ملائمة لطبيعة الأشياء أن تكون كرامات الخلفاء و الأولياء و اللاحقين بمحمد النبى صلى الله عليه وسلم مستمدة مــن فيض ذلك الكمال المطلق (١) ، وهذا الفريق يقوم اعتقاده فى رسـول الله صلى الله عليه وسلم على نظرية أذلية النور المحمدى والتى مؤداها أن النور المحمدى " ظهر فى صور جميع الأنبياء من آدم الى عيسى ثم

(١) الدكتور/ محمد مصطفى حلمى ، ابن الفارض والحب الالهـــى ص٣٧٧ ط دار المعارف بمصر .

أخيرا ظهر فى صورة الرسول محمد نفسه ، ولكن ظهوره لم ينته فى نظر الصوفية بموته فأنهم يعتقدون أنه هو الذى لا يزال يظهر فى صور الأولياء الذين يقتبسون من نوره فهو ولى من حيث باطنه ، رسول من حيث ظاهره ومقامه من حيث الولاية أعظم وأعلى فى نظر الصوفية من مقامه من حيث النبوة والرسالة (١) .

فاذا كان لنا أن ندرك موقف هؤلاء من الكرامة وانها امتداد للحقيقة المحمدية تبين لنا اعتدادهم بأن " نصرة أبى بكر للاسلام بقتال آل حنيفة الذين أضلهم مسيلمة الكذاب ومكاشفة عمر وهو فى المدينة بحال سارية وهو فى نهاوند — وتمكن الايمان من قلب عثمان ، وأخذه نفسه بالعزم والثبات واشتغاله بتلاوة القرآن الكريم مع ما أخذه به الجناة من عنف وشدة عند قتله ، وعلم عَلِىّ الذى أوضح به المشكل والذى تلقاه بالوصية عن محمد ، كل أولئك آثار من آثار ذلك الكمال المطلق الذى ورثه الخلفاء الراشدون عن الروح المحمدى ، فضلا عن محمد النبى وصور من فيضه الذى تجلى فى كل واحد منهم بجهاد

---

(١) الاستاذ / رينولد نيكولسون فى التصوف الاسلامى وتاريخه عربه الدكتور ابو العلا عفيفى ص ١٦١ لجنة التاليف والترجمه والنشر ١٣٨٨ هـ — ١٩٦٩م .

رائع وكشف باطن أو علم ظاهر او عمل (١) نافع ، ولهذا نسبوا الى الأولياء من الكرامات ما قد تبدو المبالغة فيه واضحة .

الثالث : وهم المعتدلون

يعرفون الكرامة بأنها " أمر خارق للعادة غير مقرون بدعوى النبوة ولا هو مقدمة لها تظهر على يد رجل ظاهر الصلاح والتقوى ، ملتزم لنبي كلف بشريعته (٢) وهذا التعريف يمكن اعتباره ممثلا للصوفية المعتدلة لأنه يماثل تعريف المتكلمين وان كان مانعا من دخول المرأة فيه مع أن من استدلالهم عليها ، ما وقع لمريم رضى الله عنها حملا وولادة ومن قبل كفالة نبى الله زكريا لها وعلى هذا يمكن حمله (لفظ رجل الوارد بالتعريف) على الغالب الأعم .

وهذا الفريق يرى أن الكرامة فيض والهام من الله للولى وهى من خصوصيات هذا الطريق وآية عظمى من آيات الله تعالى (٣) وهم

---

(١) الدكتور / محمد مصطفى حلمى — ابن الفارض والحب الالهى ص ٣٧٧

(٢) الشيخ احمد الشافعى محمد محمد ابو خليل الكبير — طريق الله فى التصوف ص ٢ ، ص ٥٢ الطبعة الثانية مطبعة مصطفى بالفيوم

(٣) الشيخ صالح الشافعى محمد محمد ابو خليل — اشراقات فى طريق الله ص ٦٠ الطبعة الاولى ١٣٩٨ هـ .

يؤكدون على هذا المعنى فيقول " الكرامة هبة من الله لمن أحبه وغمره بنوره فى مرحلة الفناء الكامل ووصول النفس الى مرتبة شهود الحق بالحق ، وانكشاف ووضوح العوالم الخفية والاسرار الربانية (١) ثم يقول :

الكرامات عطايا من الله سبحانه وتعالى لأوليائه ومواهب لا تنال بالطلب وليست هى المقصودة فى العمل وأهل الكمال العاملين على النهج المستقيم والشرع القويم والسلوك المحمدى المبين " فى احوالهم ومقاماتهم لا يقصدون فى عملهم نوال درجات أو عطايا انما مقصدهم هو الله سبحانه وتعالى والفناء فى حبه ومطلوبهم انما هو رضاؤه عنهم فاذا مَنَّ الله تعالى على عبده الصالح بموهبة من المواهب أو درجة من الدرجات أو كرامة من خوارق العادات كان قبوله لها على أنها عطية من المحبوب لا أنها مطلوبه فتشغله (٢) .

(١) المصدر السابق ص : ٧٢

(٢) المصدر نفسه ص : ٨١

* حكم الكرامة عند الفريق المعتدل :

يرون ان " ظهور الكرامات للأولياء جائز عقلا ، وواقع نقلا ، اما جوازه عقلا فلأنه ليس بمستحيل فى قدرة الله تعالى ، بل هو من قبيل الممكنات ولا يلزم من جوازها ووقوعها محال وكل ما هذا شأنه فهو جائز الوقوع (١) وما عن المنقول فهم يستدلون بقصة أصف ، ومريم وغيرهما مما يستشهد به فى هذا المقام ، وهذا الفريق المعتدل يرى أن الكرامات لم تكن مطلبا للولى فى التصوف الاسلامى الصحيح ، وربما كان ظهور الكرامات على أيدى أفذاذ من القوم هو الذى أوهم الناس أنها مطلب للتصوف أو غاية من غاياته ولولا ذلك ما جرت على أيديهم الخوارق والكرامات والحق أنها لم تكن مطلبا لأهل الحقائق ، بل هم أول من يؤمن بها لما كانت تقوى المظاهر ، وتعلن الرياسات — فانها تفتن العيون والقلوب وربما أفرطت فى الاضلال فاعتدت على نفس صاحبها فأذاقته طعم البطر وارتدى لون الغرور (٢)

(١) الشيخ احمد الشافعى محمد ابو خليل طريق اللص : ٥١
(٢) الدكتور : عبد العزيز سيد الاهل — بين الشريعة والحقيقة ص ١٢٢ ، ١٢٣ ط. المجلس الاعلى للشئون الاسلامية ١٤٠٠هـ

بل ان من المحدثين من كان أكثر صراحة فقال : " ليس من شروط الولى ظهور خوارق العادات المسماة عرفا بالكرامة على يديه فليس عند أهل التحقيق كرامة اجل من صدق التمسك بالكتاب والسنة وصحة المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه الراشدين "(١)

* أنواع الكرامات عند الصوفيـــــه :

١ـ اجابة الدعـوة

٢ـ اظهار طعام فى أوان فاته من غير سبب ظاهر

٣ـ حصول ماء فى زمان عطش .

٤ـ تسهيل قطع مسافة طويلة فى مدة قصيرة

٥ـ تخليص من عدو .

٦ـ سماع خطاب من هاتف .

وبعد أن فصل الأنواع قال الامام القشيرى :

" وأعلم ان كثيرا من المقدورات يعلم اليوم قطعا أنه لا يجـــوز أن يظهر كرامة للأولياء وبضرورة أو شبه ضرورة يعلم ذلك فمنها حصـــول انسان لا من أبوين ، وقلب جماد بهيمة أو حيوانا وأمثال هذا كثير"(٢)

(١) الاستاذ / كمال احمد عون ـ أولياء الله بين الموالين والجافين ص ١٠ ط مجمع البحوث الإسلامية ١٩٧١م

(٢) الامام القشيرى ـ الرساله القشيريه ص ٢٧٦

وما ذكره الامام القشيرى أمثلة للكرامات وليس انواعا بل أننـــى أميل الى ان حصر أفراد الكرامات لا يتأتى لأحد من الناس اما لماذا ؟ فلأن الله يهب من يشاء ما يشاء على النحو الذى يريده ، جل علاه ، فقد تكون الكرامة مثلا : فى

١ـ اشباع من غير طعام

٢ـ إقدار الله لرجل على مواقعة أكثر من زوجة من زوجاته فى الليلة الواحدة وربما مع تقدم سنه مع صغر سن بعضهن ، اكراما لـــه حتى يتمكن من تحقيق العدل المقتدر عليه بينهن .

٣ـ اقدار الله لعبده الصالح على تحمل ما لا يقدر عليه أمثاله كما كان يفعل بسيدنا بلال بن رباح أو سيدنا عمار بن ياســــر وغيرهما الى غير ذلك من الصور التى يصعب حصرها .

يقول الدكتور/ محمد مصطفى حلمى : " الكرامات عند الصوفية ضروب متفاوتة فى قيمتها وفى مبلغ ما تدل عليه من قدرة أصحابها علـــى التصرف والاتيان بالخوارق فقد تكون الكرامة تنبوءا بالمستقبل أواطلاعا على ما فى القلوب أو احساسا بما يقع من الأحداث فى أماكن نائية ، أو رؤية للجنة أومشاهدة لله ، أو كشفا لما فى ملكوت السمــوات ،

وقد تكون الكرامة احضار طعام ليس موجودا أو جلب فاكهة فى غير أوانها أو قطع آماد بعيدة فى أوقات قصيرة ، وقد تكون أشياء أخرى غير ما ذكرنا من الأمور التى هى خرق لكل عادة ، وخروج على كل مألوف من القوانين الطبيعية (١)

وللقوم اصطلاحات ودلالتها عندهم مما لا مجال لمناقشته هنا .

(١) الدكتور/ محمد مصطفى حلمى — ابن الفارض والحب الالهى ص : ٧٢ ط دار المعارف ١٩٧١ م

((أهم المصادر والمراجع))

حسب ورودها أسفل صفحات الكتاب

مسلسل	المصادر والمراجع
١	القرآن الكريم .
٢	صحيح البخارى
٣	صحيح مسلم
٤	فتح البارى
٥	الأستاذ الشيخ / مصطفى عبد الرازق ، مقدمة كتاب ابن الفارض والحب الالهى .
٦	عبد الكريم بن هوازن القشيرى - الرسالة القشيرية فى علم التصوف .
٧	د / محمد مصطفى حلمى ابن الفارض والحب الالهى
٨	شيخ الاسلام ابن تيمية - مجموع الفتاوى التصوف .
٩	القاموس المحيط والمعجم الوجيز .
١٠	السيد الشريف الجرجانى - التعريفات .
١١	الشيخ / احمد الملوى - شرح السلم المنورق ط الحلبى
١٢	الشيخ / محمد على الصبان - حاشية الصبان على شرح السلم للملوى .
١٣	الشيخ / حسن درويش القويسنى - شرح القويسنى على متن السلم فى المنطق ط الحلبى .

تابع اهم المصادر والمراجع

مسلسل	المصادر والمراجع
١٤	الشيخ / ابراهيم الباجوري ـ حاشية الباجوري على متن السلم طبعة الحلبي .
١٥	الشيخ / محمد الانبابي ـ تقريرات الانبابي على متن السلم .
١٦	الشيخ / محمد الأمير ـ حاشية الامير على شرح عبد السلام المالكي للجوهرة ط الحلبي .
١٧	الامام الباجوري ـ تحقيق المقام على كفاية العوام .
١٨	العلامة / عبد الرحمن الاخضري ـ متن السلم ط الحلبي
١٩	الاستاذ الشيخ / مصطفى الحديدي الطير ـ اقباس من نور الحق .
٢٠	مطالع الأنظار للبيضاوي
٢١	د / محمد حسيني موسى الغزالي ـ الايمان بالغيب
٢٢	الشيخ / محمد بن احمد عرفة الدسوقي ، حاشية على أم البراهين .
٢٣	القاسمي / أصول التحديث .
٢٤	قصيدة عبد الله الفيصل الشاعر السعودي " من أجل عينيك " .

تابع اهم المصادر والمراجع

مسلسل	المصادر والمراجع
٢٥	الامام الهيثمى — مجمع الزوائد
٢٦	مختصر الزبيرى
٢٧	الامام الهيثمى — مجمع الزوائد
٢٨	شيخ الاسلام زكريا الأنصارى هامش الرسالة القشرية ـ ط صبوح .
٢٩	شيخ الاسلام العز بن عبد السلام — زبدة خلاصة التصوف المسمى بحل الرموز — تحقيق طه عبد الروف سعد .
٣٠	مختار الصحاح
٣١	الاتحافات السنية فى الأحاديث القدسية .
٣٢	الشيخ / محمد محمود عبد العليم — الولاية .
٣٣	الاستاذ / أبو بكر الجزائرى — منهاج المسلم كتاب عقائد وآداب وأخلاق وعبادات ومعاملات .
٣٤	الامام البيهقى — الاعتقاد على مذهب السلف .
٣٥	الامام ابن عجيبة — الفهرسة — تحقيق / عبد الحميد صالح حمدان .
٣٦	الاستاذ / كمال احمد عون — أولياء الله بين المواليين والجاهين ١٩٧١م .
٣٧	شيخ الاسلام / ابن قيم الجوزية — مدارج السالكين . ط دار الحديث بالقاهره .

تابع اهم المصادر والمراجع

مسلسل	المصادر والمراجع
٣٨	الشيخ / محمود أحمد هاشم — ديوانه — دينيات ط المجلس الاعلى للشئون الاسلاميه بمصر — العدد ٨٩ لعام ١٩٦٨م .
٣٩	الشيخ / محمود احمد هاشم — ديوانه — الهاشميات
٤٠	د / محمود محمد زيادة — العرب وظهور الاسلام — ط دار الطباعة .
٤١	الزمخشرى — الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل .
٤٢	تنبيه الأذهان - للبروسوى
٤٣	مجموع الفتاوى لأبن تيمية .
٤٤	الشيخ / احمد الشافعى محمد محمد أبو خليل الكبير — طريق الله فى التصوف .
٤٥	الشيخ / صالح الشافعى محمد محمد أبو خليل — اشراقات فى طريق الله .
٤٦	الاستاذ / رينولد نيكولسون - فى التصوف الاسلامى وتاريخه عربه الدكتور / أبو العلا عفيفى — ١٩٦٩م .

فهرس الموضوعات

تابع فهرس الموضوعات

تابع فهرس الموضوعات

تابع فهرس الموضوعات

مع أطيب التمنيات بالنجاح ،

... محمد كمال للطباعة والنسخ
بالزقازيق — شرقية

دكتور / محمد الغزالي

(كتب صدرت للمؤلف)

(١) الايمان بالغيب وأثره على الفكر الاسلامي — مكتب شروق بالزقازيق ١٩٩٥م أولى ، والطبعة الثانية القاهرة ١٩٩٧م .

(٢) أوراق متناثرة في التيارات المعاصرة — مطبعة غريب ١٩٩٥م نفذت الطبعة الأولى وجاري اصدار الطبعة الثانية .

(٣) رياض الأشواق في الميتافيزيقا والأخلاق — مكتب شروق ١٩٩٥م أولى وط ٢ الهدى ١٩٩٦م

(٤) حبو الوليد في علم التوحيد — مكتب شروق ١٩٩٥م ط أولى وجاري ط ٢ بمؤسسة شروق ١٩٩٧م

(٥) غدوة المشتاق في ربوع الأخلاق — مكتب غريب ١٩٩٦م أولى والثانية مؤسسة الشروق ١٩٩٧م

(٦) وميض النصرانية بين غيوم المسيحية — مطبعة صنعاء بالأسدية ١٩٩٦م والثانية مؤسسة شروق ١٩٩٧

(٧) حلف الفضول عند العرب وأثره في العصر الحديث — مطبعة صنعاء بالأسدية ١٩٩٦م

(٨) حنيف الأفنان في "الملل والنحل والأديان — مكتب الأصدقاء ١٩٩٦ أولى ، ط ٢ الهدى ١٩٩٧

(٩) درة المدد بتفسير سورة الصمد — مطبعة صنعاء بالأسدية ١٩٩٦م

(١٠) خواطر حثيثة في الفلسفة الحديثة — مطبعة صنعاء ١٩٩٦م بالأسدية طبعة أولى .

(١١) ديوان " التائه الغريب " في الشعر العامودي الوزن المقفى طبعة أولى مكتب الأصدقاء ١٩٩٦

(١٢) أنات حائرة — مؤسسة الشروق بالزقازيق ١٩٩٧م

(١٣) لماذا انتشر الاسلام ؟ جـ١ ط ٣ مؤسسة الشروق ١٩٩٧م بالزقازيق .

(١٤) قيمة الصراع بين الفلسفة الاسلامية وعلم الكلام جـ١ ط٣ مطبعة الشروق ١٩٩٧م .

(١٥) عبد الكريم الخطيب وأراؤه الكلامية — مؤسسة الشروق ١٩٩٧م .

(١٦) أوراق منسية في النصوص الفلسفية — مؤسسة الشروق ١٩٩٧م . نفذت

(١٧) أوراق مطوية في التصوف والصوفية — مؤسسة الشروق ١٩٩٧م .

(١٨) يوميات في سنوات — مؤسسة الشروق ١٩٩٧م أولى .

(١٩) صدع البرهان في جمهوري السودان — مؤسسة الشروق ١٩٩٧م .

(٢٠) من وحي البيان في جماعة الشيطان — مؤسسة الشروق ١٩٩٧م .

(٢١) قضايا حبيسة في الفلسفة الحديثة ١٩٩٧م . مؤسسة الشروق .

(٢٢) أنسام حَيّية في الأفكار الصوفية ١٩٩٧م مطبعة صبحي اولى

(٢٣) منهج السلف في أثبات وجود الله تعالى ط أولى ١٩٩٧ مطبعة الشروق

(٢٤) امرأة المعلم قرني مطبعة شروق أولى ١٩٩٧م

(٢٥) وهذا مذهبي — مسرحية نثرية مرتجلة .

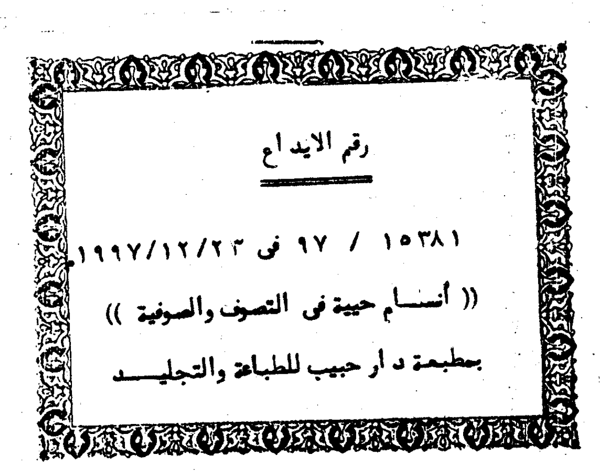
تطلب هذه الكتب من

* مكتبة رد روز بالزقازيق لصاحبها الحاج / فتحي عباس خلف مستشفى الحرمين ٦ ش الهدى
* مكتبة الشرق بجوار مكتب توفير بريد الزقازيق ، ومعارض الكهراوي .

الدكتور
محمد حسيني موسى محمد الغزالي
الغزالي

مراجعة

الاستاذ الدكتور / أحمد طلعت محمد الغنام
استاذ العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين
جامعة الأزهر بالقاهرة



رقم الايداع

١٥٣٨١ / ٩٧ فى ٢٣/١٢/١٩٩٧م

((أنسام حيية فى التصوف والصوفية))

بمطبعة دار حبيب للطباعة والتجليد